سورة نوح

عشرون وثمان آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ في قوله: ﴿أَنْ﴾ وجهان: أحدهما: أصله بأن أنذر فحذف الجار وأوصل الفعل، والمعنى أرسلناه بأن قلنا له: أنذر أي أرسلناه بالأمر بالإنذار، الثاني قال الزجاج: يجوز أن تكون مفسرة والتقدير: إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه أي أنذر قومك وقرأ ابن مسعود، ﴿أَنذِرْ﴾ بغير (أن) على إرادة القول.

ثم قال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال مقاتل: يعني الغرق بالطوفان.

واعلم أن الله تعالى لما أمره بذلك امتثل ذلك الأمر ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم قال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ هو نظير ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ [نوح: ١] في الوجهين، ثم إنه أمر القوم بثلاثة أشياء بعبادة الله وتقواه وطاعة نفسه، فالأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب وأفعال الجوارح، والأمر بتقواه يتناول الزجر عن جميع المحظورات والمكروهات، وقوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ يتناول أمرهم بطاعته وجميع المأمورات والمنهيات، وهذا وإن كان داخلاً في الأمر بعبادة الله وتقواه، إلا أنه خصه بالذكر تأكيدًا في ذلك التكليف ومبالغة في تقريره، ثم إنه تعالى لما كلفهم بهذه الأشياء الثلاثة وعدهم عليها بشيئين: أحدهما: أن يزيل مضار الآخرة عنهم، وهو قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾. الثاني: يزيل عنهم مضار الدنيا بقدر الإمكان، وذلك بأن يؤخر أجلهم إلى أقصى الإمكان.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ما فائدة ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؟ والجواب من وجوه أحدها: أنها صلة زائدة والتقدير: يغفر لكم ذنوبكم، والثاني: أن غفران الذنب هو أن لا يؤاخذ به، فلو قال: يغفر لكم ذنوبكم، لكان معناه أن لا يؤاخذكم بمجموع ذنوبكم، وعدم المؤاخذة

بالمجموع لا يوجب عدم المؤاخذة بكل واحد من آحاد المجموع، فله أن يقول: لا أطالبك بمجموع ذنوبك، ولكني أطالبك بهذا الذنب الواحد فقط، أما لما قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ كان تقديره يغفر كل ما كان من ذنوبكم، وهذا يقتضي عدم المؤاخذة على مجموع الذنوب وعدم المؤاخذة أيضًا على كل فرد من أفراد المجموع، الثالث: أن قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ هب أنه يقتضي التبعيض لكنه حتى لأن من آمن فإنه يصير ما تقدم من ذنوبه على إيمانه مغفورًا، أما ما تأخر عنه فإنه لا يصير بذلك السبب مغفورًا، فثبت أنه لا بد هاهنا من حرف التبعيض.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ الجواب: قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم الله ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة سنة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سماه الله وجعله غاية الطول في العمر، وهو تمام الألف، ثم أخبر أنه إذا انقضى ذلك الأجل الأطول، لا بد من الموت.

السؤال الثالث: ما الفائدة في قوله ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجواب: الغرض الزجر عن حب الدنيا، وعن التهالك عليها والإعراض عن الدين بسبب حبها، يعني أن غلوهم في حب الدنيا وطلب لذاتها بلغ إلى حيث يدل على أنهم شاكون في الموت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾

اعلم أن هذا من الآيات الدالة على أن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره، وذلك لأنا نرى إنسانين يسمعان دعوة الرسول في مجلس واحد بلفظ واحد، فيصير ذلك الكلام في حق أحدهما سببًا لحصول الهداية، والميل والرغبة، وفي حق الثاني سببًا لمزيد العتو والتكبر، ونهاية النفرة، وليس لأحد أن يقول: إن تلك النفرة والرغبة حصلتا باختيار المكلف، فإن هذا مكابرة في المحسوس، فإن صاحب النفرة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك النفرة وصاحب الرغبة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك الرغبة، ومتى حصلت تلك النفرة وجب أن يحصل عقيبه التمرد والإعراض، وإن حصلت الرغبة وجب أن يحصل عقيبه الانقياد والطاعة، فعلمنا أن إفضاء سماع تلك الدعوة في حق أحدهما إلى الرغبة المستلزمة لحصول الطاعة والانقياد وفي حق الثاني إلى النفرة المستلزمة لحصول التمرد والعصيان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره، فإن قيل: هب أن حصول النفرة والرغبة ليس باختياره، لكن حصول العصيان عند النفرة يكون باختياره، فإن العبد متمكن مع تلك النفرة أن ينقاد ويطيع، قلنا: إنه لو حصلت النفرة غير معارضة بوجه من وجوه الرغبة بل خالصة عن جميع شوائب الرغبة امتنع أن يحصل معه الفعل، وذلك لأنه عندما تحصل النفرة والرغبة لم يحصل الفعل ألبتة، فعند حصول النفرة انضم إلى عدم المقتضي وجود المانع، فبأن يصير الفعل ممتنعًا أولى، فثبت أن هذه الآية من أقوى الدلائل على القضاء والقدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾.

اعلم أن نوحًا عليه السلام إنما دعاهم إلى العبادة والتقوى والطاعة لأجل أن يغفر لهم، فإن المقصود الأول هو حصول المغفرة، وأما الطاعة فهي إنما طلبت ليتوسل بها إلى تحصيل المغفرة، ولذلك لما أمرهم بالعبادة قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤] فلما كان المطلوب الأول من الدعوة حصول المغفرة لا جرم قال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ واعلم أنه عليه السلام لما دعاهم عاملوه بأشياء:

أولها: قوله: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ والمعنى أنهم بلغوا في التقليد إلى حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا الحجة والبينة. **وثانيها:** قوله: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي تغطوا بها، إما لأجل أن لا يبصروا وجهه كأنهم لم يجوزوا أن يسمعوا كلامه، ولا أن يروا وجهه. وإما لأجل المبالغة في أن لا يسمعوا، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك، صار المانع من السماع أقوى. **وثالثها:** قوله: ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ والمعنى أنهم أصروا على مذهبهم، أو على إعراضهم عن سماع دعوة الحق. **ورابعها:** قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي عظيمًا بالغًا إلى النهاية القصوى.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

واعلم أن هذه الآيات تدل على أن مراتب دعوته كانت ثلاثة، فبدأ بالمناصحة في السر، فعاملوه بالأمور الأربعة، ثم ثنى بالمجاهرة، فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض إما بحسب الزمان، أو بحسب الرتبة، لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الإسرار والجهار أغلظ من الجهار وحده، فإن قيل: بم انتصب ﴿جِهَارًا﴾؟ قلنا: فيه وجوه: **أحدها:** أنه منصوب بدعوتهم نصب المصدر، لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار، فنصب به نصب القرفصاء بقعد لكونها أحد أنواع القعود. **وثانيها:** أنه أريد بدَعوتُهُمْ جاهرتُهُم. **وثالثها:** أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاء جهارًا، أي مجاهرًا به. **ورابعها:** أن يكون مصدرًا في موضع الحال أي مجاهرً.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾

قال مقاتل: إن قوم نوح لما كذبوه زمانًا طويلًا حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فرجعوا فيه إلى نوح، فقال نوح: استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب نعمه.

واعلم أن الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات، ويدل عليه وجوه: أحدها: أن الكفر سبب لخراب العالم على ما قال في كفر النصارى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٩٠-٩١] فلما كان الكفر سببًا لخراب العالم، وجب أن يكون الإيمان سببًا لعمارة العالم، وثانيها: الآيات منها هذه الآية ومنها قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ﴾ [الأعراف: ٩٦] ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [المائدة: ٦٦] ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن: ١٦] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ [طه: ١٣٢] وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية، ورابعها: أن عمر خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء. المجدح ثلاثة كواكب مخصوصة، ونوءه يكون عزيزًا شبه عمر (الاستغفار) بالأنواء الصادقة التي لا تخطئ، وعن بكر بن عبدالله: أن أكثر الناس ذنوبًا أقلهم استغفارًا، وأكثرهم استغفارًا أقلهم ذنوبًا، وعن الحسن: أن رجلاً شكا إليه الجدب، فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعًا من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا له الآية، **وهاهنا سؤالات:**

الأول: أن نوحًا عليه السلام أمر الكفار قبل هذه الآية بالعبادة والتقوى والطاعة، فأي فائدة في أن أمرهم بعد ذلك بالاستغفار؟ الجواب: أنه لما أمرهم بالعبادة قالوا له: إن كان الدين القديم الذي كنا عليه حقًا فلم تأمرنا بتركه، وإن كان باطلاً فكيف يقبلنا بعد أن عصيناه، فقال نوح عليه السلام: إنكم وإن كنتم عصيتموه ولكن استغفروه من تلك الذنوب، فإنه سبحانه كان غفارًا.

السؤال الثاني: لم قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ ولم يقل: إنه غفار؟ قلنا المراد: إنه كان غفارًا في حق كل من استغفروه كأنه يقول: لا تظنوا أن غفاريته إنما حدثت الآن، بل هو أبدًا هكذا كان، فكأن هذا هو حرفته وصنعته.

قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝﴾

واعلم أن الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصف: ١٣] فلا جرم أعلمهم الله تعالى هاهنا أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا.

والأشياء التي وعدهم من منافع الدنيا في هذه الآية خمسة: أولها: قوله: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ

عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ وفي السماء وجوه: أحدها: (أن) المطر منها ينزل إلى السحاب، وثانيها: أن يراد بالسماء السحاب، وثالثها: أن يراد بالسماء المطر من قوله:

إِذَا نَـزَلَ الـسَّـمَـاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ رَعَـيْـنَـاهُ وَإِنْ كَـانُـوا غِـضَـابَـا(١)

والمدرار الكثير الدرور، ومفعال مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، كقولهم: رجل أو امرأة معطار ومثفال وثانيها: قوله: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ﴾ وهذا لا يختص بنوع واحد من المال بل يعم الكل، وثالثها: قوله: ﴿وَبَنِينَ﴾ ولا شك أن ذلك مما يميل الطبع إليه. ورابعها: قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين، وخامسها: قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ . .

ثم قال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ **وفيه قولان:**

الأول أن الرجاء هاهنا بمعنى الخوف ومنه قول الهذلي:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا(٢)

والوقار العظمة والتوقير: التعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح: ٩] بمعنى ما بالكم لا تخافون لله عظمة. وهذا القول عندي غير جائز، لأن الرجاء ضد الخوف في اللغة المتواترة الظاهرة، فلو قلنا: إن لفظة الرجاء في اللغة موضوعة بمعنى الخوف لكان ذلك ترجيحًا للرواية الثابتة بالآحاد على الرواية المنقولة بالتواتر وهذا يفضي إلى القدح في القرآن، فإنه لا لفظ فيه إلا ويمكن جعل نفيه إثباتًا وإثباته نفيًا بهذا الطريق، الوجه الثاني: ما ذكره صاحب (الكشاف) وهو أن المعنى: مالكم لا تأملون لله توقيرًا أي تعظيمًا، والمعنى مالكم لا تكونوا على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم و﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقر، ولو تأخر لكان صلة للوقار.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[نوح: ١٤] في موضع الحال كأنه قال: مالكم لا تؤمنون بالله، والحال هذه وهي حال موجبة للإيمان به ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي تارات خلقكم أولاً ترابًا، ثم خلقكم نطفًا، ثم خلقكم علقًا، ثم خلقكم مضغًا، ثم خلقكم عظامًا ولحمًا، ثم أنشأكم خلقًا آخر، وعندي فيه وجه ثالث: وهو أن القوم كانوا يبالغون في الاستخفاف بنوح عليه السلام فأمرهم الله تعالى بتوقيره وترك الاستخفاف به، فكأنه قال لهم: إنكم إذا وقرتم نوحًا وتركتم الاستخفاف به كان ذلك لأجل الله، فما لكم لا ترجون وقارًا وتأتون به لأجل الله ولأجل أمره

---

(١) هذا البيت لمعود الحكماء وهو: معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري. شاعر من أشراف العرب في الجاهلية، هو أخو (ملاعب الأسنة) عامر بن مالك وعم (لبيد بن ربيعة المتوفى سنة ٤١هـ ٦٦١م) الشاعر. لقب بمعود الحكماء لقوله:

أعوِّد مثلها الحكماء بعدي إذا ما الأمر في الحدثان نابا

وهو من أبيات يقول فيها:

إذا نزل الغمام بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

(٢) تقدمت ترجمة الهذلي.

وطاعته، فإن كل ما يأتي به الإنسان لأجل الله، فإنه لا بد وأن يرجو منه خيرًا، ووجه رابع: وهو أن الوقار هو الثبات من وقر إذا ثبت واستقر، فكأنه قال: ﴿مَّا لَكُمْ﴾ وعند هذا تم الكلام، ثم قال على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي لا ترجون لله ثباتًا وبقاء، فإنكم لو رجوتم ثباته وبقاءه لخفتموه، ولما أقدمتم على الاستخفاف برسله وأوامره، والمراد من قوله: ﴿تَرْجُونَ﴾ أي تعتقدون لأن الراجي للشيء معتقد له.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾

واعلم أنه لما أمر في هذه الآية بتعظيم الله استدل على التوحيد بوجوه من الدلائل:

الأول: قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وفيه وجهان: الأول: قال الليث: الطورة التارة يعني حالاً بعد حال كما ذكرنا أنه كان نطفة، ثم علقة إلى آخر التارات. **الثاني:** قال ابن الأنباري: الطور الحال، والمعنى خلقكم أصنافًا مختلفين لا يشبه بعضكم بعضًا، ولما ذكر هذا الدليل من الأنفس على التوحيد، أتبعه بذكر دليل التوحيد من الآفاق على العادة المعهودة في كل القرآن.

الدليل الثاني على التوحيد: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

واعلم أنه تعالى تارة يبدأ بدلائل الأنفس، وبعدها بدلائل الآفاق كما في هذه الآية، وذلك لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه، فلا جرم بدأ بالأقرب، وتارة يبدأ بدلائل الآفاق، ثم بدلائل الأنفس إما لأن دلائل الآفاق أبهر وأعظم، فوقعت البداية بها لهذا السبب، أو لأجل أن دلائل الأنفس حاضرة، لا حاجة بالعاقل إلى التأمل فيها، إنما الذي يحتاج إلى التأمل فيه دلائل الآفاق، لأن الشبه فيها أكثر، فلا جرم تقع البداية بها، **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: قوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ يقتضي كون بعضها منطبقًا على البعض، وهذا يقتضي أن لا يكون بينها فرج، فالملائكة كيف يسكنون فيها؟ **الجواب:** الملائكة أرواح فلعل المراد من كونها طباقًا كونها متوازية لا أنها متماسة.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ والقمر ليس فيها بأسرها بل في السماء الدنيا؟ **والجواب:** هذا كما يقال السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في جميع أحياز العراق بل إن ذاته في حيز من جملة أحياز العراق فكذا هاهنا.

السؤال الثالث: السراج ضوءه عرضي وضوء القمر عرضي متبدل فتشبيه القمر بالسراج أولى من تشبيه الشمس به. **الجواب:** الليل عبارة عن ظل الأرض والشمس لما كانت سببًا لزوال ظل الأرض كانت شبيهة بالسراج، وأيضًا فالسراج له ضوء والضوء أقوى من النور فجعل الأضعف للقمر والأقوى للشمس، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾

الدليل الثالث على التوحيد: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

واعلم أنه تعالى رجع هاهنا إلى دلائل الأنفس وهو كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] فإنه بيَّن أنه تعالى خلقهم من الأرض ثم يردهم إليها ثم يخرجهم منها مرة أخرى، أما قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في هذه الآية وجهان: أحدهما: معنى قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنبت أباكم من الأرض كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]. والثاني: أنه تعالى أنبت الكل من الأرض لأنه تعالى إنما يخلقنا من النطف وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض.

المسألة الثانية: كان ينبغي أن يقال: أنبتكم إنباتًا إلا أنه لم يقل ذلك بل قال: أنبتكم نباتًا، والتقدير: أنبتكم فنبتم نباتًا، وفيه دقيقة لطيفة: وهي أنه لو قال: أنبتكم إنباتًا كان المعنى أنبتكم إنباتًا عجيبًا غريبًا، ولما قال: أنبتكم نباتًا كان المعنى أنبتكم فنبتم نباتًا عجيبًا، وهذا الثاني أولى لأن الإنبات صفة لله تعالى وصفة الله غير محسوسة لنا، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى، وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى فلا يمكن إثباته بالسمع، أما لما قال: ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ . . . ﴿نَبَاتًا﴾ على معنى أنبتكم فنبتم نباتًا عجيبًا كاملاً كان ذلك وصفًا للنبات بكونه عجيبًا كاملاً، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس، فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى، فكان هذا موافقًا لهذا المقام فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف، أما قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ فهو إشارة إلى الطريقة المعهودة في القرآن من أنه تعالى لما كان قادرًا على الابتداء كان قادرًا على الإعادة، وقوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أكده بالمصدر كأنه قال: يخرجكم حقًّا لا محالة.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي طرقًا واسعة واحدها فج وهو مفسر فيما تقدم.

واعلم أن نوحًا عليه السلام لما دعاهم إلى الله ونبههم على هذه الدلائل الظاهرة حكى عنهم أنواع قبائحهم وأقوالهم وأفعالهم.

فالأول: قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ وذلك لأنه قال في أول السورة ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣] فكأنه قال: قلت لهم أطيعون فهم عصوني.

الثاني: قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ذكر في الآية الأولى أنهم عصوه وفي هذه الآية أنهم ضموا إلى عصيانه معصية أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر، وقوله: ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني هذان وإن كانا من جملة المنافع في الدنيا إلا أنهما لما صارا سببًا للخسارة في الآخرة فكأنهما صارا محض الخسار والأمر كذلك في الحقيقة لأن الدنيا في جنب الآخرة كالعدم فإذا صارت المنافع الدنيوية أسبابًا للخسارة في الآخرة صار ذلك جاريًا مجرى اللقمة الواحدة من الحلو إذا كانت مسمومة سم الوقت، واستدل بهذه الآية من قال: إنه ليس لله على الكافر نعمة لأن هذه النعم استدراجات ووسائل إلى العذاب الأبدي فكانت كالعدم، ولهذا المعنى قال نوح عليه السلام في هذه الآية: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾.

المسألة الثانية: قرئ (وُوُلْدُهُ) بضم الواو واعلم أن الوُلْد بالضم لغة في الولد، ويجوز أن يكون جمعًا إما جمع ولد كالفلك، وهاهنا يجوز أن يكون واحدًا وجمعًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾

النوع الثالث: من قبائح أفعالهم قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿وَمَكَرُوا﴾ معطوف على ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ﴾ [نوح: ٢١] لأن المتبوعين هم الذين مكروا وقالوا للأتباع: ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾، وجمع الضمير وهو راجع إلى ﴿مَن﴾، لأنه في معنى الجمع.

المسألة الثانية: قرئ ﴿كُبَّارًا﴾ و(كُبَارًا) بالتخفيف والتثقيل، وهو مبالغة في الكبير، فأول المراتب الكبير، والأوسط الكُبَار بالتخفيف، والنهاية الكُبَّار بالتثقيل، ونظيره: جَمِيل وجُمَال وجُمَّال، وعَظِيم وعُظَام وعُظَّام، وطَوِيل وطُوَال وطُوَّال.

المسألة الثالثة: المكر الكبار هو أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ فهم منعوا القوم عن التوحيد، وأمروهم بالشرك، ولما كان التوحيد أعظم المراتب، لا جرم كان المنع منه أعظم الكبائر فلهذا وصفه الله تعالى بأنه كبار، واستدل بهذا من فضل علم الكلام على سائر العلوم، فقال: الأمر بالشرك كبار في القبح والخزي، فالأمر بالتوحيد والإرشاد وجب أن يكون كبارًا في الخير والدين.

المسألة الرابعة: أنه تعالى إنما سماه مكرًا لوجهين: الأول: لما في إضافة الإلهية إليهم من الحيلة الموجبة لاستمرارهم على عبادتها، كأنهم قالوا: هذه الأصنام آلهة لكم، وكانت آلهة لآبائكم، فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين كافرين، وعلى

آبائكم بأنهم كانوا كذلك، ولما كان اعتراف الإنسان على نفسه، وعلى جميع أسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقًّا شديدًا، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ آلهتكم صارفًا لهم عن الدين، فلأجل اشتمال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمى الله كلامهم مكرًا، الثاني: أنه تعالى حكى عن أولئك المتبوعين أنهم كان لهم مال وولد، فلعلهم قالوا لأتباعهم: إن آلهتكم خير من إله نوح، لأن آلهتكم يعطونكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيه شيئًا لأنه فقير، فبهذا المكر صرفوهم عن طاعة نوح، وهذا مثل مكر فرعون إذ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] وقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٢-٥٣].

المسألة الخامسة: ذكر أبو زيد البلخي في كتابه في الرد على عبدة الأصنام أن العلم بأن هذه الخشبة المنحوتة في هذه الساعة ليست خالقة للسموات والأرض، والنبات والحيوان علم ضروري، والعلوم الضرورية لا يجوز وقوع الاختلاف فيها بين العقلاء، وعبادة الأوثان دين كان موجودًا قبل مجيء نوح عليه السلام بدلالة هذه الآية، وقد استمر ذلك الدين إلى هذا الزمان، وأكثر سكان أطراف المعمورة على هذا الدين، فوجب حمل هذا الدين على وجه لا يعرف فساده بضرورة العقل، وإلا لما بقي هذه المدة المتطاولة في أكثر أطراف العالم، فإذًا لا بد وأن يكون للذاهبين إلى ذلك المذهب تأويلات: أحدها: قال أبو معشر جعفر بن محمد المنجم: هذه المقالة إنما تولدت من مذهب القائلين بأن الله جسم وفي مكان، وذلك لأنهم قالوا: إن الله نور هو أعظم الأنوار، والملائكة الذين هم حافون حول العرش الذي هو مكانه، هم أنوار صغيرة بالنسبة إلى ذلك النور الأعظم، فالذين اعتقدوا هذا المذهب اتخذوا صنمًا هو أعظم الأصنام على صورة إلههم الذي اعتقدوه، واتخذوا أصنامًا متفاوتة، بالكبر والصغر والشرف والخسة على صورة الملائكة المقربين، واشتغلوا بعبادة تلك الأصنام على اعتقاد أنهم يعبدون الإله والملائكة، فدين عبادة الأوثان إنما ظهر من اعتقاد التجسيم، الوجه الثاني: وهو أن جماعة الصابئة كانوا يعتقدون أن الإله الأعظم خلق هذه الكواكب الثابتة والسيارة، وفوض تدبير هذا العالم السفلي إليها، فالبشر عبيد هذه الكواكب، والكواكب عبيد الإله الأعظم، فالبشر يجب عليهم عبادة الكواكب، ثم إن هذه الكواكب كانت تطلع مرة وتغيب أخرى، فاتخذوا أصنامًا على صورها واشتغلوا بعبادتها، وغرضهم عبادة الكواكب، الوجه الثالث: أن القوم الذين كانوا في قديم الدهر، كانوا منجمين على مذهب أصحاب الأحكام، في إضافات سعادات هذا العالم ونحوساتها إلى الكواكب، فإذا اتفق في الفلك شكل عجيب صالح لطلسم عجيب، فكانوا يتخذون ذلك الطلسم، وكان يظهر منه أحوال عجيبة وآثار عظيمة، وكانوا يعظمون ذلك الطلسم ويكرمونه ويشتغلون بعبادته، وكانوا يتخذون كل طلسم على شكل موافق لكوكب خاص ولبرج خاص، فقيل: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد،

ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، الوجه الرابع: أنه كان يموت أقوام صالحون فكانوا يتخذون تماثيل على صورهم ويشتغلون بتعظيمها، وغرضهم تعظيم أولئك الأقوام الذين ماتوا حتى يكونوا شافعين لهم عند الله وهو المراد من قولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] الوجه الخامس: أنه ربما مات ملك عظيم، أو شخص عظيم، فكانوا يتخذون تمثالاً على صورته وينظرون إليه، فالذين جاءوا بعد ذلك ظنوا أن آباءهم كانوا يعبدونها فاشتغلوا بعبادتها لتقليد الآباء، أو لعل هذه الأسماء الخمسة وهي: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، أسماء خمسة من أولاد آدم، فلما ماتوا قال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم، فكنتم تنظرون إليهم، ففعلوا فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم، ولهذا السبب نهى الرسول عليه السلام عن زيارة القبور أولاً، ثم أذن فيها على ما يروى أنه عليه السلام قال: كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإن في زيارتها تذكرة، السادس: الذين يقولون إنه تعالى جسم، وإنه يجوز عليه الانتقال والحلول، لا يستبعدون أن يحل تعالى في شخص إنسان، أو في شخص صنم، فإذا أحسوا من ذلك الصنم المتخذ على وجه الطلسم حالة عجيبة، خطر ببالهم أن الإله حصل في ذلك الصنم ولذلك فإن جمعًا من قدماء الروافض لما رأوا أن عليًّا عليه السلام قلع باب خيبر، وكان ذلك على خلاف المعتاد قالوا: إن الإله حل في بدنه وإنه هو الإله، الوجه السابع: لعلهم اتخذوا تلك الأصنام كالمحراب ومقصودهم بالعبادة هو الله، فهذا جملة ما في هذا الباب، وبعضها باطلة بدليل العقل، فإنه لما ثبت أنه تعالى ليس بجسم بطل اتخاذ الصنم على صورة الإله، وبطل القول أيضًا بالحلول والنزول، ولما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات، بطل القول بالوسايط والطلسمات، ولما جاء الشرع بالمنع من اتخاذ الصنم، بطل القول باتخاذها محاريب وشفعاء.

المسألة السادسة: هذه الأصنام الخمسة كانت أكبر أصنامهم، ثم إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب، فكان ود لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير ولذلك سمت العرب بعبد ود، وعبد يغوث، هكذا قيل في الكتب، وفيه إشكال لأن الدنيا قد خربت في زمان الطوفان، فكيف بقيت تلك الأصنام، وكيف انتقلت إلى العرب، ولا يمكن أن يقال: إن نوحًا عليه السلام وضعها في السفينة وأمسكها لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها فكيف يمكن أن يقال: إنه وضعها في السفينة سعيًا منه في حفظها.

المسألة السابعة: قرئ: (لا تذرن ودا) بفتح الواو وبضم الواو، قال الليث: ود بفتح الواو صنم كان لقوم نوح، ووُد بالضم صنم لقريش، وبه سمي عمرو بن عبد ود، وأقول: على قول الليث وجب أن لا يجوز هاهنا قراءة ود بالضم لأن هذه الآيات في قصة نوح لا في أحوال قريش وقرأ الأعمش: (ولا يَغُوثًا ولاَ يعوقًا) بالصرف وهذه قراءة مشكلة لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سببا منع الصرف، إما التعريف ووزن الفعل، وإما التعريف والعجمة، فلعله

صرفهما لأجل أنه وجد أخواتهما منصرفة ودًا وسواعًا ونسرًا.

واعلم أن نوحًا لما حكى عنهم أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ قال: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ فيه وجهان: الأول: أولئك الرؤساء قد أضلوا كثيرًا قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام وليس هذا أول مرة اشتغلوا بالإضلال، الثاني: يجوز أن يكون الضمير عائدًا إلى الأصنام، كقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وأجرى الأصنام على هذا القول مجرى الآدميين كقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾. ففيه سؤالان:

الأول: كيف موقع قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾؟ الجواب: كأن نوحًا عليه السلام لما أطنب في تعديد أفعالهم المنكرة وأقوالهم القبيحة امتلأ قلبه غيظًا وغضبًا عليهم فختم كلامه بأن دعا عليهم.

السؤال الثاني: إنما بعث ليصرفهم عن الضلال فكيف يليق به أن يدعو الله في أن يزيد في ضلالهم؟ الجواب: من وجهين: الأول: لعله ليس المراد الضلال في أمر الدين، بل الضلال في أمر دنياهم، وفي ترويج مكرهم وحيلهم، الثاني: الضلال العذاب لقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧].

ثم إنه تعالى لما حكى كلام نوح عليه السلام قال بعده: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: (مَا) صلة كقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [النساء: ١٥٥] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ [النساء: ١٥٩] والمعنى من خطاياهم أي من أجلها وبسببها، وقرأ ابن مسعود: (من خطيآتهم ما أغرقوا) فأخر كلمة (ما)، وعلى هذه القراءة لا تكون (ما) صلة زائدة لأن (ما) مع ما بعده في تقرير المصدر.

واعلم أن تقديم قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ لبيان أنه لم يكن إغراقهم بالطوفان إلا من أجل خطيآتهم، فمن قال من المنجمين: إن ذلك إنما كان بسبب أنه انقضى في ذلك الوقت نصف الدور الأعظم، وما يجري مجرى هذه الكلمات كان مكذبًا لصريح هذه الآية فيجب تكفيره.

المسألة الثانية: قرئ (خَطِيئاتِهِمْ) بالهمزة و(خَطِيَّاتِهِمْ) بقلبها ياء وإدغامها و(وَخَطَايَاهُمْ) و(وَخَطِيئَتِهِمْ) بالتوحيد على إرادة الجنس، ويجوز أن يراد به الكفر. واعلم أن الخطايا والخطيئات كلاهما جمع خطيئة، إلا أن الأول جمع تكسير والثاني جمع سلامة، وقد تقدم الكلام فيها في [البقرة: ٥٨] عند قوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ وفي [الأعراف: ١٦١] عند قوله: ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾.

المسألة الثالثة: تمسك أصحابنا في إثبات عذاب القبر بقوله: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ وذلك من وجهين: الأول: أن الفاء في قوله: ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ تدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء، الثاني: أنه قال:

﴿فَأُدۡخِلُواْ﴾ على سبيل الإخبار عن الماضي. وهذا إنما يصدق لو وقع ذلك، قال مقاتل والكلبي: معناه أنهم سيدخلون في الآخرة نارًا ثم عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لصحة كونه وصدق الوعد به كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] واعلم أن الذي قالوه ترك للظاهر من غير دليل. فإن قيل: إنما تركنا هذا الظاهر لدليل، وهو أن من مات في الماء فإنا نشاهده هناك فكيف يمكن أن يقال: إنهم في تلك الساعة أدخلوا نارًا؟ والجواب: هذا الإشكال إنما جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل، وهذا خطأ لما بينا أن هذا الإنسان هو الذي كان موجودًا من أول عمره، مع أنه كان صغير الجثة في أول عمره، ثم إن أجزاءه دائمًا في التحلل والذوبان، ومعلوم أن الباقي غير المتبدل، فهذا الإنسان عبارة عن ذلك الشيء الذي هو باق من أول عمره إلى الآن، فلم لا يجوز أن يقال: إنه وإن بقيت هذه الجثة في الماء إلا أن الله تعالى نقل تلك الأجزاء الأصلية الباقية التي كان الإنسان المعين عبارة عنها إلى النار والعذاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ وهذا تعريض بأنهم إنما واظبوا على عبادة تلك الأصنام لتكون دافعة للآفات عنهم جالبة للمنافع إليهم، فلما جاءهم عذاب الله لم ينتفعوا بتلك الأصنام، وما قدرت تلك الأصنام على دفع عذاب الله عنهم، وهو كقوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ [الأنبياء: ٤٣] واعلم أن هذه الآية حجة على كل من عول على شيء غير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ قال المبرد: ﴿دَيَّارًا﴾ لا تستعمل إلا في النفي العام، يقال: ما بالدار ديَّار ولا تستعمل في جانب الإثبات، قال أهل العربية: هو فيعال من الدور، وأصله ديوار فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى، قال الفراء والزجاج: وقال ابن قتيبة: ما بها ديار أي نازل دار.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ فإن قيل: كيف عرف نوح عليه السلام ذلك؟ قلنا: للنص والاستقراء، أما النص فقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٥] وأما الاستقراء فهو أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فعرف طباعهم وجربهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: احذر هذا فإنه كذاب،

وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، وقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنهم يكونون في علمك كذلك، والثاني: أنهم سيصيرون كذلك.

واعلم أنه عليه السلام لما دعا على الكفار قال بعده: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ أي فيما صدر عني من ترك الأفضل، ويحتمل أنه حين دعا على الكفار إنما دعا عليهم بسبب تأذيه منهم، فكان ذلك الدعاء عليهم كالانتقام فاستغفر عن ذلك لما فيه من طلب حظ النفس.

ثم قال: ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ أبوه لمك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش وكانا مؤمنين، وقال عطاء: لم يكن بين نوح وآدم عليهما السلام من آبائه كافر، وكان بينه وبين آدم عشرة آباء. وقرأ الحسن بن علي (وَلِوَلَدَيَّ) يريد ساما وحاما.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ قيل: مسجدي، وقيل: سفينتي، وقيل: لمن دخل في ديني، فإن قيل: فعلى هذا التفسير يصير قوله: ﴿مُؤْمِنًا﴾ مكررًا، قلنا: إن من دخل في دينه ظاهرًا قد يكون مؤمنًا بقلبه وقد لا يكون، والمعنى: ولمن دخل في ديني دخولاً مع تصديق القلب.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إنما خص نفسه أولاً بالدعاء ثم المتصلين به لأنهم أولى وأحق بدعائه ثم عم المؤمنين والمؤمنات.

ثم ختم الكلام مرة أخرى بالدعاء على الكافرين فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ أي هلاكًا ودمارًا وكل شيء أهلك فقد تبر، ومنه قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾[الأعراف: ١٣٩] وقوله: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾[الإسراء: ٧] فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالكلية، فإن قيل: ما جُرْمُ الصبيان حين أغرقوا؟ والجواب من وجوه: الأول: أن الله تعالى أيبس أصلاب آبائهم وأعقم أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة أو تسعين فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا، ويدل عليه قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾[نوح: ١٠، ١٢] وهذا يدل بحسب المفهوم على أنهم إذا لم يستغفروا فإنه تعالى لا يمددهم بالبنين، الثاني: قال الحسن: علم الله براءة الصبيان فأهلكهم بغير عذاب، الثالث: غرقوا معهم لا على وجه العقاب بل كما يموتون بالغرق والحرق وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون، والله سبحانه وتعالى أعلم. والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

سورة نوح

مَكِّيَّةٌ، وهي ثمان وعشرون آية[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾

قد مضى القول في «الأعراف» أن نُوحاً عليه السلام أوَّلُ رسولٍ أُرسِل[2]. ورواه قتادة عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «أوَّلُ رسولٍ أُرسل نوح، وأُرسل إلى جميع أهل الأرض»[3]. فلذلك لمَّا كَفَروا أَغْرَق اللهُ أهلَ الأرض جميعاً.

وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ[4]، وهو إدريس بن يرد بن مهلايل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام[5]. قال وهب: كلهم مؤمنون. أُرسل إلى قومه وهو ابن خمسين سنة. وقال ابن عباس: ابن أربعين سنة. وقال عبد الله بن شدَّاد: بُعث وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة[6]. وقد مضى في سورة العنكبوت القولُ فيه[7]. والحمد لله.

---

(١) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٤٠٦ ، والبغوي ٤/ ٣٩٧ . ووقع في (ق) سبع وعشرون ، وفي (د) و(ظ) : تسع وعشرون . وفي الكشاف ٤/ ١٦١ : تسع أو ثمان وعشرون آية .

(٢) ٩/ ٢٥٨ .

(٣) لم نقف عليه من حديث ابن عباس، وجاء في حديث الشفاعة المطول الذي رواه أنس ﷺ: «إنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض». وهو عند أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٤).

(٤) في (د) و(ق) : خنوخ .

(٥) سلف مختصراً ٧/ ٢٢١ إلى أخنوخ ،وفيه : لمك ، بدل : لامك . وسلف ١٣/ ٣٣٣ ، ووقع فيه: مهلايل بن قينان بن أنوش .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٩٨ ، وسلف ٩/ ٢٥٩ .

(٧) ١٦/ ٣٤٥ .

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أنذر قومك؛ فموضع «أن» نصب بإسقاط الخافض. وقيل: موضعها جَرٌّ لقوَّة خِدْمتها مع «أن». ويجوز «أن» بمعنى المفسِّرة، فلا يكون لها موضع من الإعراب؛ لأن في الإرسال معنى الأمر، فلا حاجة إلى إضمار الباء. وقراءة عبد الله: «أَنْذِر قَوْمَكَ» بغير «أن» بمعنى قلنا له: أنذر قومك[1]. وقد تقدَّم معنى الإنذار في أوّل «البقرة»[2].

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: يعني عذاب النار في الآخرة. وقال الكلبيُّ: هو ما نزَل عليهم من الطوفان. وقيل: أي أنذرهم العذابَ الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا. فكان يدعو قومه وينذرهم فلا يَرى منهم مجيباً؛ وكانوا يَضربونه حتى يُغشى عليه فيقول: ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[3]. وقد مضى هذا مستوفًى في سورة العنكبوت[4] والحمد لله وحده.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: مخوِّف. ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: مُظهِرٌ لكم بلسانكم الذي تعرفونه. ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ و«أن» المفسِّرة على ما تقدم في «أَنْ أَنْذِرْ». «اعْبُدُوا» أي: وحِّدوا. واتقوا: خافوا. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: فيما آمركم به، فإني رسول الله إليكم. ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ جُزم «يغفر» بجواب الأمر[5]. و«مِن» صلةٌ زائدة. ومعنى الكلام: يغفر لكم ذنوبَكم، قاله السدِّيُّ[6]. وقيل: لا يصح كونها

---

(١) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٢، وذكر القراءة أيضاً الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٦١.

(٢) ١/ ٢٨١.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٩٨ - ٩٩، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٠، والطبري ٢٣/ ٣٠٩ عن مجاهد.

(٤) ١٦/ ٣٤٥، وفي سورة التوبة ١٠/ ٣٩٩، وسورة هود ١١/ ١٢٩-١٣٠.

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣٧.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٩٩.

زائدة؛ لأن «مِن» لا تُزاد في الواجب، وإنما هي هنا للتبعيض، وهو بعض الذنوب، وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين. وقيل: هي لبيان الجنس. وفيه بُعْدٌ؛ إذ لم يتقدَّم جنسٌ يليق به[١]. وقال زيد بن أسلم: المعنى: يخرجكم من ذنوبكم. ابن شجرة: المعنى يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها[٢].

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال ابن عباس: أي: ينسئ في أعماركم. ومعناه أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم إن آمنوا بارك في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عُوجلوا بالعذاب. وقال مقاتل: يؤخِّركم إلى منتهى آجالكم في عافية؛ فلا يعاقبكم بالقحط وغيره. فالمعنى على هذا يؤخركم من العقوبات والشدائد إلى آجالكم. وقال الزجاج[٣]: أي يؤخِّركم عن العذاب فتموتوا غير موتة المستأصَلين بالعذاب. وعلى هذا قيل: «أَجَلٍ مُسَمًّى» عندكم تعرفونه، لا يميتكم غَرَقاً ولا حَرَقاً ولا قَتْلاً؛ ذكره الفرَّاء[٤]. وعلى القول الأوّل «أَجَلٍ مُسَمًّى» عند الله.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي: إذا جاء الموت لا يؤخَّر بعذاب كان أو بغير عذاب. وأضاف الأَجَلَ إليه سبحانه؛ لأنه الذي أثبته. وقد يضاف إلى القوم، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤] لأنه مضروب لهم. و«لَوْ» بمعنى «إن» أي: إن كنتم تعلمون. وقال الحسن: معناه: لو كنتم تعلمون لَعَلِمْتُم أن أَجَلَ اللهِ إذا جاء لا يؤخَّر[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: سِرًّا وجهراً. وقيل: أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٢ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٩٩.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٢٨.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٨٧.

(٥) جاءت العبارة في (د) و(م): إذا جاءكم لم يؤخر. والمثبت من باقي النسخ وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٩٩ وقول الحسن فيه.

واصلت الدعاء. ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: تباعداً من الإيمان، وقراءة العامة بفتح الياء من «دعائي» وأسكنها الكوفيون ويعقوب والدُّوري عن أبي عمرو[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ أي: إلى سبب المغفرة، وهي الإيمانُ بك والطاعةُ لك. ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلَّا يَسمعوا دعائي ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: غطَّوا بها وجوهَهم لئلَّا يَرَوْني[2]. وقال ابن عباس: جعلوا ثيابَهم على رؤوسهم لئلا يَسمعوا كلامَه. فاستِغشاءُ الثياب إذاً زيادة في سدِّ الآذان حتى لا يسمعوا، أو لتنكيرهم أنفسَهم حتى يَسكت، أو ليعرِّفوه إعرَاضَهم عنه. وقيل: هو كناية عن العَداوة. يقال: لبِس لي فلان ثيابَ العداوة. ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أي: على الكفر فلم يتوبوا. ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن قبول الحقِّ؛ لأنهم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ تفخيم[3].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي: مُظْهِراً لهم الدعوة. وهو منصوب بـ«دعوتُهم» نصبَ المصدر؛ لأن الدعاء أحدُ نوعيه الجِهار، فنصب به نصبَ القُرفُصاء

(١) كذا ذكر المصنف عن أبي عمرو، وهو وهم منه رحمه الله، فالذي روى إسكان الياء في هذا الحرف عن أبي عمرو هو عباس؛ كما ذكر ابن مجاهد في السبعة ص٦٥٢، وعباس هذا: هو ابن الفضل بن عمر، أبو الفضل الواقفي، فلعل وهم المصنف ذهب إلى عباس الدوري الذي روى عنه أصحاب السنن، فقال: الدوري عن أبي عمرو. ووُلد عباس الدوري سنة (١٨٥)، أي بعد وفاة أبي عمرو بن العلاء بحوالي ثلاثين عاماً. أما الدُّوري راوي أبي عمرو؛ فهو حفص بن عمر، أبو عمر، وقد روى عنه ـ هو والسوسي ـ فتح الياء في هذا الحرف. وقد وقع للمصنف رحمه الله مثل هذا الوهم في سورة المعارج الآية (٣٣).

(٢) في (د) و(ق) و(م) يروه. والمثبت من (خ)و(ظ) وهو الموافق لما في الوسيط ٤/ ٣٥٧، وزاد المسير ٨/ ٣٧٠.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٠.

بقَعَد؛ لكونها أحد أنواع القعود، أو لأنه أراد بـ «دَعَوْتُهُم»: جاهرتُهم. ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا؛ أي: دعاءً جهاراً؛ أي: مجاهِراً به. أو يكون[1] مصدراً في موضع الحال، أي: دَعَوْتُهم مجاهِراً لهم بالدعوة.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾. أي: لم أُبْقِ مجهوداً. وقال مجاهد: معنى أعلنت: صحتُ[2]، «وأسررت لهم إسراراً». بالدعاء عن بعضهم من بعض. وقيل: «أَسْرَرْتُ لَهُمْ» أي: أتيتهم في منازلهم. وكلٌّ هذا من نوح عليه السلام مبالغة في الدعاء لهم، وتلطُّفٌ في الاستدعاء[3].

وفتح الياءَ من «إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ» الحِرْمِيَّان[4] وأبو عمرو، وأسكن الباقون[5].

قوله تعالى: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي: سَلُوه المغفرةَ من ذنوبكم السالفةِ بإخلاص الإيمان. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾. وهذا منه ترغيبٌ في التوبة. وقد روى حُذَيفة بنُ اليمان عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الاستغفارُ مِمْحاة للذنوب». وقال الفُضيل: يقول العبد: أستغفرُ اللهَ، وتفسيرها: أَقِلْني[6].

---

(١) في (م): ويكون، والمثبت من (ظ) و(ق) وهو الموافق لما في الكشاف ٤/ ١٦٢ والكلام منه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٩٣.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠١.

(٤) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: الحرميون. والحِرْميَّان هما: نافع المدني، وابن كثير المكي، والحِرْميّ ـ بكسر الحاء وسكون الراء ـ نسبة إلى الحَرَمَ على غير قياس في الناس، والنسبة في غير الناس: حَرَميّ، بفتح الحاء والراء. اللسان (حرم).

(٥) التيسير ص٢١٥، ولم يذكرها ابن مجاهد في السبعة.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٠١، والحديث ذكره الديلمي في الفردوس ١/ ١٢٤ (٤٢٨)، وقال المناوي في فيض القدير ٣/ ١٧٧: فيه عبيد بن كثير التمار، قال الذهبي: قال الأزدي: متروك وعبيد الله بن خراش، ضعفه الدارقطني وغيره.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: يُرسل ماءَ السماء، ففيه إضمارٌ. وقيل: السماء المطر؛ أي: يُرسل المطرَ. قال الشاعر:

إذا سقط السماءُ بأرض قومٍ ... رَعيناه وإن كانوا غِضابا[١]

و«مِدْرَارًا»: ذَا غَيْثٍ كثير. وجزم «يُرْسِل» جواباً للأمر. وقال مقاتل: لمَّا كذَّبوا نوحاً زماناً طويلاً حبَس اللهُ عنهم المطرَ، وأعقَم أرحامَ نسائِهم أربعين سنةً؛ فهَلَكت مواشيهم وزروعهم، فصاروا[٢] إلى نوح عليه السلام واستغاثوا به. فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾[٣] أي: لم يَزَل كذلك لمن أناب إليه. ثم قال ترغيباً في الإيمان: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾. قال قتادة: عَلِم نبيُّ الله ﷺ أنهم أهل حرصٍ على الدنيا فقال: هَلُمّوا إلى طاعة الله، فإن في طاعة الله دَرْكَ[٤] الدنيا والآخرة[٥].

الثالثة: في هذه الآية والتي في «هود»[٦] دليلٌ على أن الاستغفار يُستنزل به الرزقُ والأمطار. قال الشعبيُّ: خَرَج عمر يستسقي؛ فلم يَزِد على الاستغفار حتى رجع، فأُمطروا، فقالوا: ما رأيناك استسقيتَ؟ فقال: لقد طلبتُ المطرَ بمجاديح السماء التي يُستنزل بها المطر؛ ثم قرأ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[٧].

---

(١) البيت لمعاوية بن مالك، وسلف ١/ ٣٢٧.

(٢) في (ظ) فساروا.

(٣) الوسيط ٤/ ٣٥٧، والرازي ٣٠/ ١٣٧ بنحوه.

(٤) في (ظ): عزّ.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٠١، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٢٩٤.

(٦) ١١/ ١٤١ - ١٤٢.

(٧) أخرجه عبد الرزاق (٤٩٠٢)، وابن أبي شيبة ٢/ ٤٧٤، والطبري ٢٣/ ٢٩٣ - ٢٩٤، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٤٥ (١٠٩٦٠) قال الحافظ في الكافي الشاف ص ١٧٧. ورجاله ثقات إلا أنه منقطع.

وقوله: بمجاديح. جمع مِجْدَح، وهو نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالَّة على المطر، فجعل الاستغفارَ مشبَّهاً بالأنواء؛ مخاطبةً لهم بما يعرفونه، لا قولاً بالأنواء التي يزعمون أن من شأنها المطر. ينظر النهاية (جدح).

وقال الأوزاعيُّ: خَرَج الناس يستسقون؛ فقام فيهم بلال بنُ سعد، فحمِد اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: اللهمَّ إنا سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة:٩١]، وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟! اللهم اغفرْ لنا وارحمنا واسقِنا! فرفع يديه ورَفعوا أيديَهم، فسُقُوا(١).

وقال ابن صَبِيح(٢): شكا رَجلٌ، إلى الحسن الجُدوبةَ، فقال له: استغفرِ اللهَ. وشكا آخر إليه الفقرَ، فقال له: استغفر الله. وقال له آخر: ادعُ اللهَ أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله. وشكا إليه آخر جفافَ بستانه، فقال له: استغفر الله. فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئاً؛ إن الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(٣).

وقد مضى في سورة آل عمران(٤) كيفيةُ الاستغفار، وأن ذلك يكون عن إخلاص وإقلاعٍ من الذنوب، وهو الأصل في الإجابة.

قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

قيل: الرجاءُ هنا بمعنى الخوف(٥)؛ أي: ما لَكم لا تخافون لله عظمةً وقدرة على أحدكم بالعقوبة. أيْ: أيُّ عذرٍ لكم في ترك الخوف من الله. وقال سعيد بن جُبَير وأبو العالية وعطاء بن أبي رَبَاح: ما لَكم لا تَرجون لله ثواباً ولا تخافون له(٦) عقاباً. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ما لكم لا تخشَون لله عقاباً وترجون منه ثواباً(٧). وقال

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٦٢ (١٠٢٠٩)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٢٢٦.

(٢) هو الربيع بن صَبيح البصري، من رجال التهذيب.

(٣) الكشاف ٤/ ١٦٢، ومجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٦٧ - ٦٨، وذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٤، والرازي ٣٠/ ١٣٧.

(٤) ٥/ ٦٠.

(٥) الوسيط ٤/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٤/ ٣٩٨.

(٦) في (ظ): منه.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٠١.

الوالبيُّ والعَوْفي عنه: ما لكم لا تعلَمون لله عظمةً. وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد: ما لكم لا تَرَوْن لله عظمة[١] وعن مجاهد والضحاك: مالكم لا تبالون لله عظمة[٢]. قال قُطْرُب: هذه لغة حجازية. وهُذيل وخزاعة ومُضَر يقولون: لم أرجُ: لم أُبالِ. والوَقار: العظمة. والتوقير: التعظيم[٣]. وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبةً[٤]؛ كأن المعنى: ما لكم لا ترجون لله عاقبةَ الإيمان. وقال ابن كَيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيراً[٥]. وقال ابن زيد: ما لكم لا تؤدُّون لله طاعةً. وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرون له نعمةً. وقيل: ما لكم لا توحِّدون اللهَ؛ لأن من عَظَّمه فقد وحَّده. وقيل: إن الوَقار الثباتُ للهِ عزَّ وجلَّ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٣] أي: اثبتن. ومعناه: ما لكم لا تُثبتون وحدانيةَ اللهِ تعالى وأنه إلهكم لا إله لكم سواه؛ قاله ابنُ بحر.

ثم دَلَّهم على ذلك فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[٦] أي: جَعَل لكم في أنفسكم آيةً تدل على توحيده[٧]. قال ابن عباس: «أَطْوَارًا» يعني نطفة ثم علقة ثم مضغة[٨]؛ أي: طَوْراً بعد طور إلى تمام الخَلْق، كما ذكر في سورة المؤمنون[٩]. والطَّوْرُ في اللغة: المَرَّةُ، أي: مَن فَعَل هذا وقَدَرَ عليه فهو أحقُّ أن تُعَظِّموه. وقيل: «أَطْوَارًا»: صبياناً، ثم شباباً، ثم شيوخاً وضعفاء، ثم أقوياء. وقيل: أطواراً أي: أنواعاً: صحيحاً

---

(١) تفسير البغوي ٣٩٨/٤ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٩٥/٢٣ ، وعن ابن عباس البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٨).

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢٩٥/٢٣ .

(٣) الوسيط ٣٥٨/٤ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٣١٩/٢ ، والطبري ٢٩٦/٢٣ .

(٥) تفسير البغوي ٣٩٨/٤ .

(٦) النكت والعيون ١٠١/٦ - ١٠٢ .

(٧) الوسيط ٣٥٨/٤ .

(٨) أخرجه الطبري ٢٩٧/٢٣ .

(٩) ١٩/١٥ .

وسقيماً، وبصيراً وضريراً، وغنيًّا وفقيراً[١]. وقيل: إن «أطواراً»: اختلافهم في الأخلاق والأفعال[٢].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ ذكَر لهم دليلاً آخر، أي: ألم تعلموا أن الذي قدر على هذا، فهو الذي يجب أن يُعْبَد؟! ومعنى «طِبَاقًا»: بعضها فوق بعض[٣]، كل سماء مُطبقة على الأخرى كالقباب؛ قاله ابن عباس والسدّيُّ. وقال الحسن: خَلق اللهُ سبعَ سماوات طباقاً على سبع أرضين، بين كل أرض وأرض وسماءٍ وسماء خَلْقٌ وأمرٌ[٤].

وقوله: «أَلَمْ تَرَوْا» على جهة الإخبار لا المعاينة؛ كما تقول: ألم ترني كيف صنعت بفلان كذا. و«طِبَاقاً» نصب على أنه مصدر، أي: مطابقة طباقاً. أو حال بمعنى ذات طباق؛ فحذف ذات وأقام طِباقاً مقامه[٥].

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: في سماء الدنيا؛ كما يقال: أتاني بنو تميم وأتيت بني تميم، والمراد بعضهم؛ قاله الأخفش[٦]. قال ابن كَيْسان: إذا كان في إحداهن فهو فيهنَّ. وقال قُطْرُب: «فِيهِنّ» بمعنى معهنَّ[٧]؛ وقاله الكلبيُّ. أي: خلق الشمسَ والقمر مع خلق السماوات والأرض. وقال جِلَّةُ أهل اللغة في قول امرئ القيس:

(١) ينظر مجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٦٨ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٠٢ .

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ٢٩٩ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٠٢ بنحوه .

(٥) ينظر معاني للزجاج ٥/ ٢٣٠ ، وتفسير الطبري ٢٣/ ٢٩٩ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٧١٥ ، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٧١ .

(٧) مجمع البيان ٢٩/ ٧٠ دون نسبة .

وهل ينعمن مَنْ كانَ آخِرُ عهدِهِ ثلاثين شهراً في ثلاثةِ أحوالِ[(١)]

: «في» بمعنى مع. النحاس: وسألت أبا الحسن بن كَيسان عن هذه الآية فقال: جواب النحْويين أنه إذا جعله في إحداهنَّ فقد جعلَه فيهنَّ، كما تقول: أعطني الثياب المُعْلَمة وإن كنتَ إنما أعلمت أحدَها. وجوابٌ آخر: أنه يروى أن وجه القمر إلى السماء، وإذا كان إلى داخلها فهو متصل بالسماوات[(٢)].

ومعنى: «نُورًا» أي: لأهل الأرض؛ قاله السدّيُّ[(٣)]. وقال عطاء: نوراً لأهل السماء والأرض. وقال ابن عباس وابن عمر: وجهه يضيء لأهل الأرض وظهره يضيء لأهل السماء.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يعني مصباحاً لأهل الأرض ليتوصلوا إلى التصرف لمعايشهم. وفي إضاءتها لأهل السماء القولان الأوّلان؛ حكاه الماورديُّ[(٤)]. وحكى القشيريُّ عن ابن عباس أن الشمسَ وجهها في السماوات وقفاها في الأرض[(٥)]. وقيل: على العكس. وقيل لعبد الله بن عمر[(٦)]: ما بالُ الشمس تَقْلِينا أحياناً وتَبْرُد علينا أحياناً؟ فقال: إنها في الصيف في السماء الرابعة، وفي الشتاء في السماء السابعة عند عرش الرحمن؛ ولو كانت في السماء الدنيا لمَا قام لها شيء.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

يعني آدم عليه السلام خلقه من أديم الأرض كلِّها؛ قاله ابن جريج[(٧)]. وقد مضى

---

(١) ديوانه ص٢٧، وفيه: وهل يَعِمَنْ من كان أحدثُ عهده، وسلف ١٣/ ١٦٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣٩ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٢.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ١٠٢، وقول ابن عباس وابن عمر ذكره عن ابن عباس فقط.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥.

(٦) في (ظ) و(ق): عمرو.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٠٢.

في سورة الأنعام والبقرة بيان ذلك[١]. وقال خالد بن مَعْدان: خلق الإنسانَ من طين، فإنما تلين القلوب في الشتاء[٢]. و«نَبَاتاً» مصدر على غير المصدر؛ لأن مصدره أنبت إنباتاً، فجعل الاسم الذي هو النَّبات في موضع المصدر. وقد مضى بيانه في سورة آل عمران[٣] وغيرها. وقيل: هو مصدر محمولٌ على المعنى؛ لأن معنى: «أَنْبَتَكُمْ» جعلكم تنبتون نباتاً؛ قاله الخليل والزجاج[٤]. وقيل: أي أنبت لكم من الأرض النبات. فـ«نَبَاتاً» على هذا نصب على المصدر[٥] الصريح. والأوّل أظهرُ.

وقال ابن بحر[٦]: أنبتهم في الأرض بالكِبَر بعد الصِّغَر، وبالطول بعد القِصَر.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: عند موتكم بالدفن. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالنشور للبعث يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: مبسوطة. ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ السُّبُل: الطُّرق. والفِجاج جمع فَجٍّ، وهو الطريق الواسعة؛ قاله الفرَّاء. وقيل: الفَجُّ: المسلَك بين الجبلين. وقد مضى في سورة الأنبياء والحج[٧].

قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾

شكَاهم إلى الله تعالى، وأنهم عصَوْه ولم يتَّبعوه فيما أمرهم به من الإيمان. وقال

(١) ٨/ ٣٢٠ و١/ ٤١٩.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٠٢.

(٣) ٥/ ١٠٤.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٣٠. وزاد المسير ٨/ ٣٧٢.

(٥) في (ظ) و(ق): المفعول.

(٦) في (م) ابن جريج. والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ١٠٢.

(٧) ١٤/ ١٩٨ - ١٩٩ و٣٦٤ - ٣٦٥.

أهل التفسير: لبث فيهم ما أخبر الله تعالى: ألفَ سنة إلا خمسين عاماً داعياً لهم وهم على كفرهم وعصيانهم. قال ابن عباس: رجا نوحٌ عليه السلام الأبناءَ بعد الآباء؛ فيأتي بهم الولد بعد الولد حتى بلغوا سبع قرون، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفَشَوْا. قال الحسن: كان قوم نوح يَزرعون في الشهر مرتين؛ حكاه الماورديُّ[١].

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني كبراءهم وأغنياءهم الذين لم يزدهم كفرُهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالًا في الدنيا وهلاكاً في الآخرة.

وقرَأ أهل المدينة والشام وعاصم: «وَوَلَدُه» بفتح الواو واللام. الباقون: «وُلْده» بضم الواو وسكون اللام[٢] وهي لغة في الولد. ويجوز أن يكون جمعًا للولد، كالفُلْك، فإنه واحد وجمع. وقد تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾

أي: كبيراً عظيماً. يقال: كَبير وكُبَار وكُبَّار، مثل عجيب وعُجَاب وعُجَّاب بمعنًى، ومثله طويل وطُوَال وطُوَّال. يقال: رجل حَسن وحُسَّان، وجميل وجُمَّال[٤]، وقُرَّاء للقارئ[٥]، ووُضَاء للوضيء. وأنشد ابنُ السِّكِّيت:

بَيْضاء تَصْطادُ القلوب وتَسْتَبي ... بالحسن قَلْبَ المُسْلِم القُرَّاءِ

وقال آخر:

والمَرْءُ يُلْحِقُه بِفِتْيَانِ النَّدَى ... خُلُقُ الكريم وليس بالوُضَّاءِ[٦]

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ١٠٣.

(٢) السبعة ص ٦٥٢ - ٦٥٣، والتيسير ص ٢١٥.

(٣) ٢/ ٤٩٤.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٩٩، ومجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٧٠.

(٥) والقُرَّاء أيضاً: الناسك المتعبّد. القاموس (قرأ).

(٦) هذا البيت والذي قبله من قصيدة واحدة أنشدها أبو صدقة الدُّبَيْري للفراء كما ذكر ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ١٢٤، وذكره الجوهري في الصحاح (وضأ) (قرأ)، وابن منظور في اللسان (وضأ)، وذكر الزَّبيدي البيت الأول في تاج العروس، ونسبه لزيد بن تُرك الدُّبيري.

وقال المبرِّد: «كُبَّارًا» ـ بالتشديد ـ للمبالغة. وقرأ ابن مُحَيْصِن وحُميد ومجاهد: «كُبارًا» بالتخفيف(١).

واختلف في مكرهم ما هو؟ فقيل: هو تحريشُهم سَفِلَتَهم على قتل نوح(٢). وقيل: هو تعزيرُهم الناس بما أُوتوا من الدنيا والولد؛ حتى قالت الضَّعَفةُ: لولا أنهم على الحقّ لمَا أوتوا هذه النعم. وقال الكلبيُّ: هو ما جعلوه لِله من الصاحبة والولد. وقيل: مكرهم كفرُهم. وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾

قال ابن عباس وغيره: هي أصنام وصُوَر، كان قوم نوح يعبدونها، ثم عبدتها العرب(٤) وهذا قول الجمهور.

وقيل: إنها للعرب لم يعبدها غيرُهم(٥)، وكانت أكبرَ أصنامهم وأعظمَها عندهم؛ فلذلك خَصُّوها بالذكر بعد قوله تعالى: «لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ». ويكون معنى الكلام: كما قال قومُ نوح لأتباعهم: «لا تَذَرُنَّ آلهتكم»؛ قالت العرب لأولادهم وقومهم: لا تذرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً؛ ثم عاد بالذكر بعد ذلك إلى قوم نوح عليه السلام. وعلى القول الأوّل؛ الكلام كلُّه منسوق في قوم نوح.

وقال عُروة بن الزبير وغيره: اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه: وَدٌّ، وسُواعٌ، ويغوثُ، ويعوقُ، ونَسرٌ. وكان وَدٌّ أكبرَهم وأبرَّهم به(٦).

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٦٢، وذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٤١ بضم الكاف وكسرها.

(٢) الكلام بنحوه في الكشاف ٤/ ١٦٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٣ - ١٠٤.

(٤) أخرجه بنحوه البخاري (٤٩٢٠).

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٠٤.

(٦) المصدر السابق.

قال محمد بن كعب: كان لآدم عليه السلام خمس بنين: وَدّ، وسُواع، ويَغوث، ويَعوق، ونَسر؛ وكانوا عُبَّاداً، فمات واحدٌ[١] منهم، فحزنوا عليه، فقال الشيطان: أنا أصوِّر لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه. قالوا: افعل. فصوَّره في المسجد من صُفْر ورصاص، ثم مات آخر، فصوَّره حتى ماتوا كلُّهم فصوَّرهم. وتنقَّصَت الأشياء كما تَتنقَّص اليوم إلى أن تركوا عبادَة الله تعالى بعد حين. فقال لهم الشيطان: ما لكم لا تعبدون شيئاً؟ قالوا: وما نعبد؟ قال: آلهتكم وآلهة آبائكم، ألا ترونها[٢] في مُصَلَّاكم؟ فعبدوها من دون الله؛ حتى بعث الله نوحاً فقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الآية.

وقال محمد بن كعب أيضاً ومحمد بن قيس: بل كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم تَبَع يَقتدون بهم، فلما ماتوا زَيَّن لهم إبليس أن يصوِّروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم، وليتسَلَّوا بالنظر إليها؛ فصوَّرهم. فلما ماتوا هُم وجاء آخرون قالوا: لَيْتَ شِعْرَنا! هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها!؟ فجاءهم الشيطان فقال: كان آباؤكم يعبدونها، فترحمهم وتسقيهم المطر. فعبدوها فابتدئ عبادة الأوثان من ذلك الوقت[٣].

قلت: وبهذا المعنى فسِّر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة: أن أمَّ حبيبة وأمَّ سَلَمة ذكرتا كَنيسةً رأَيْنَها بالحبشة تسمَّى مارية، فيها تصاوير لرسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن أولئِك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات؛ بَنَوْا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصّوَر، أولئك شِرارُ الخلق عند الله يوم القيامة»[٤].

---

(١) في (د) و(ظ): رجل.

(٢) في (د) و(م) ألا ترون. والمثبت من (ظ) و(ق) وهو الموافق لما في زاد المسير ٨/ ٣٧٣ والكلام بنحوه منه، وينظر تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٥٩، والبغوي ٤/ ٣٩٩ عن محمد بن كعب، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٠٣ عن محمد بن قيس بنحوه.

(٤) صحيح مسلم (٥٢٨)، وسلف ٢/ ٢٩٤.

وذكر الثعلبيُّ عن ابن عباس قال: هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح؛ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم تذكروهم بها؛ ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسخ العلم؛ عُبدت من دون الله[١].

وذُكِر أيضاً عن ابن عباس: أن نوحاً عليه السلام، كان يحرس جسدَ آدم عليه السلام على جبل بالهند، فيمنع الكافرين أن يطوفوا بقبره؛ فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم، وإنما هو جسد، وأنا أصوِّر لكم مثله تطوفون به؛ فصوَّر لهم هذه الأصنام الخمسة وحملهم على عبادتها. فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء؛ فلم تزل مدفونةً حتى أخرجها الشيطانُ لمشركي العرب[٢].

قال الماوَرْدِيُّ[٣]: فأما وَدٌّ؛ فهو أوّل صنمٍ معبود، سُمِّي وَدًّا لوِدِّهم له؛ وكان بعدَ قومِ نوح لكَلْب بدومة الجَنْدَل؛ في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل. وفيه يقول شاعرُهم:

حَـيَّـاك وَدٌّ فـإنَّـا لا يـحـلُّ لـنـا ... لَـهْـوُ الـنـسـاءِ وإن الـدِّيـن قـد عَـزَمَـا[٤]

وأما سُواعٌ؛ فكان لهذيل بساحل البحر؛ في قولهم.

وأما يَغُوثُ؛ فكان لغُطَيف من مُراد بالجَوْف[٥] من سبأ؛ في قول قتادة.

وقال المهدَوِيُّ: لمُراد ثم لغَطَفان. الثعلبيُّ: وأخذت أعلى وأنعُم ـ وهما من

---

(١) وأخرجه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/ ٧٢ دون نسبة، ومن قوله: فلما كان أيام الطوفان ... إلى هنا، ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٤٠٠ عن ابن عباس.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٠٤ - ١٠٥.

(٤) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص ١٠١، وهو في كتاب الأصنام لابن الكلبي ص١٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦، وروايته في الديوان: حيَّاك ربي، بدل: حياك ودٌّ.

(٥) في (ظ): بالجرف. وهي في بعض نسخ البخاري كما ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٦٨.

طيِّئ ـ وأهل جُرَش من مَذْحج يَغُوث، فذهبوا به إلى مُرَاد، فعبدوه زماناً. ثم إن بني ناجية أرادوا نزعه من أنعُم، ففرُّوا به إلى الحُصَين أخي بني الحارث بن كعب من خُزاعة.

وقال أبو عثمان النَّهْدِي: رأيت يغوث وكان من رَصاص، وكانوا يحملونه على جمل أَجْرَد، ويسيرون معه لا يَهيجونه حتى يكون هو الذي يَبْرُك، فإذا بَرَك نزلوا وقالوا: قد رضي لكم المنزل؛ فيضربون عليه بناءً ينزلون حوله[١].

وأما يَعُوق؛ فكان لهَمْدان ببَلْخَع؛ في قول عكرمة وقتادة وعطاء. ذكره الماورديُّ. وقال الثعلبيُّ: وأما يَعُوق؛ فكان لكَهْلان من سَبَأ، ثم توارثه بنوه؛ الأكبر [فالأكبر] حتى صار إلى هَمْدان. وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني:

يَـريـشُ الـلـهُ فـي الـدنـيـا ويَـبْـري ... ولا يَـبْـرِي يـعـوقُ ولا يَـرِيـشُ[٢]

وأما نَسرٌ فكان لذي الكَلَاعِ من حِمْير؛ في قول قتادة، ونحوه عن مقاتل[٣]. وقال الواقديّ: كان وَدٌّ على صورة رجل، وسُواعٌ على صورة امرأة، ويغوثُ على صورة أسد، ويعوقُ على صورة فرس، ونسرٌ على صورة نَسْر من الطير؛ فالله أعلم[٤].

وقرأ نافع: «وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا» بضم الواو. وفتحها الباقون[٥].

قال الليث: وَدٌّ ـ بفتح الواو ـ صنمٌ كان لقوم نوح، ووُدٌّ ـ بالضم ـ صنمٌ لقريش؛ وبه سُمِّي عمرو بن وُدّ[٦]. وفي الصحاح: والوَدّ ـ بالفتح ـ الوَتِدُ في لغة أهل نجد؛

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٠٤. وقوله: أجرد، أي: سبَّاق.

(٢) ذكر البيت مع قول الثعلبي أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٤١ - ٣٤٢ وابن عادل في اللباب ١٩/ ٣٩٧، وما بين حاصرتين من اللباب.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٥، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٢٠، والطبري ٢٣/ ٣٠٤، وقاله ابن عباس في حديث البخاري (٤٩٢٠).

(٤) زاد المسير ٨/ ٣٧٤.

(٥) السبعة ص ٦٥٣، والتيسير ص ٢١٥.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٤.

كأنهم سكَّنوا التاءَ وأدغموها في الدال. والوَدُّ في قول امرئ القيس:

تُظْهِرُ الوَدَّ إذا ما أشْجَذَتْ وتُوارِيهِ إذا ما تَعْتَكِرْ

قال ابن دُريد: هو اسم جبل: ووَدٌّ صنم كان لقوم نوح عليه السلام، ثم صار لكلب وكان بدُومة الجَنْدَل؛ ومنه سمّوه عبد ودٍّ(١).

وقال: «لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ» ثم قال: «وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا» الآية، خصَّها بالذِّكر؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب:٧].

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ هذا من قول نوح، أي: أضلَّ كبراؤهم كثيرًا من أتباعهم؛ فهو عطف على قوله: «وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا». وقيل: إن الأصنام «أَضَلُّوا كَثِيرًا»، أي: ضلَّ بسببها كثير؛ نظيره قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦] فأجرى عليهم وصف ما(٢) يعقل؛ لاعتقاد الكفار فيهم ذلك.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾ أي: عذابًا؛ قاله ابن بحر. واستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧]. وقيل: إلا خسراناً. وقيل: إلا فتنةً بالمال والولد. وهو محتمل(٣).

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خطاياهم أُغْرِقُوا۟﴾ «ما» صلة مؤكِّدة، والمعنى: من خطاياهم. وقال الفرَّاء: المعنى من أجل خطاياهم، فأدَّت «ما» هذا المعنى. قال: و«ما» تدل على المجازاة(٤).

(١) الصحاح (ودد)، والبيت في ديوان امرئ القيس ص ١٤٤، وروايته فيه: تخرج الود، بدل: تظهر الود، وتشتكر، بدل: تعتكر وقوله: أشجذت أي: أقلعت وسكنت، يعني الغيمة.

(٢) في (ظ): من. والكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٩ - ١٩٠ بنحوه، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٤٢.

وقراءة أبي عمرو: «خَطَايَاهُمْ» على جمع التكسير؛ الواحدة خطيَّة. وكان الأصل في الجمع خطائئ على فعائل[١]؛ فلما اجتمعت الهمزتان قُلِبت الثانية ياءً؛ لأن قبلها كسرة ثم استثقلت والجمع ثقيل، وهو معتلٌّ مع ذلك؛ فقلبت الياء ألفاً، ثم قلبت الهمزة الأولى ياء لخفائها بين الألفين. الباقون «خَطِيئَاتِهِمْ» على جمع السلامة[٢].

قال أبو عمرو: قوم كفروا ألف سنة، فلم يكن لهم إلا خطيئات! يريد أن الخطايا أكثر من الخطيئات. وقال قوم: خطايا وخطيئات واحد، جمعان مستعملان في الكثرة والقلَّة؛ واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧] وقال الشاعر:

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعْنَ بِالضّحَى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدةٍ دَمَا[٣]

وقرئ: «خطيئاتهم» و«خطِيّاتِهم»[٤] بقلب الهمزة ياء وإدغامها. وعن الجَحْدَرِيِّ وعمرو بن عبيد والأعمش وأبي حَيْوة وأشهب العقيلي: «خطيئتِهِم» على التوحيد[٥]، والمراد: الشرك. ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي: بعد إغراقهم.

قال القشيريُّ: وهذا يدلُّ على عذاب القبر. ومنكروه يقولون: صاروا مستحقين دخولَ النار، أو عُرِض عليهم أماكنهم من النار؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦].

وقيل: أشاروا إلى ما في الخبر من قوله: «البحر نار في نار»[٦].

---

(١) في (ق) فعائيل.

(٢) السبعة ص ٦٥٣، والتيسير ص ٢١٥، وسلف كلام الخليل وسيبويه في أصل «خطايا» ٢/ ١٣٠-١٣١.

(٣) البيت لحسان بن ثابت وهو في ديوانه ص ٤٢٧.

(٤) في (د): خطاياهم، وخطيئاتهم

(٥) ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٦٢ خطيَّاتهم من قراءة أبي رجاء، وخطيئتهم من قراءة الجحدري وعبيد عن أبي عمرو.

(٦) أخرج الحاكم ٤/ ٥٩٦ عن يعلى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن البحر هو جهنم».

وأخرج ابن أبي شيبة ١/ ١٣١ عن عبد الله بن عمرو قال: «... إن تحت البحر ناراً ثم ماء ثم نار». وقد ذكر الحاكم هذا الحديث مرفوعاً إثر الحديث السالف.

وروى أبو رَوْق عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ قال: يعني عُذِّبوا بالنار في الدنيا مع الغرق في الدنيا في حالة واحدة؛ كانوا يَغرقون في جانب ويحترقون في الماء من جانب[١]. ذكره الثعلبيُّ قال[٢]: أنشدنا أبو القاسم الحبيبي، قال: أنشدنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن رُمَيح قال: أنشدني أبو بكر بن الأنباريّ:

الخلق مجتمِع طَوْرًا ومفترِقٌ ... والحادِثَات فُنُونٌ ذاتُ أطوارِ
لا تعجبنَّ لِأضدادٍ إنِ اجتمعتْ ... فاللهُ يجمع بين الماءِ والنارِ[٣]

﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: مَن يَدفع عنهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: دعا عليهم حين يَئس من اتّباعهم إيَّاه. وقال قتادة: دعا عليهم بعد أن أَوحى اللهُ إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[٤] [هود:٣٦]. فأجاب اللهُ دعوته وأغرَق أُمَّتَه. وهذا كقول النبيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ منزل الكتاب، [سريعَ الحساب]، وهازم الأحزاب، اهزمهم وزلزِهم»[٥].

وقيل: سببُ دعائه أن رجلاً من قومه حمل ولداً صغيراً على كتفه، فمرَّ بنوحٍ فقال: احذر هذا فإنه يضلك. فقال: يا أبتِ أنزلني؛ فأنزله فرماه فشجَّه؛ فحينئذٍ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٠، والكشاف ٤/ ١٦٥، وزاد المسير ٨/ ٣٧٤. دون قوله: ويحترقون في الماء.

(٢) لفظة: قال، من (ظ).

(٣) اللباب لابن عادل الحنبلي ١٩/ ٤٠٠.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٠٥ وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٠، والطبري ٢٣/ ٣٠٨.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١٩١٠٧)، والبخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢) عن عبد الله بن أبي أوفى، وسلفت قطعة منه ١٤/ ٣١١، وما بين حاصرتين من المصادر.

غَضِبَ ودعا عليهم[١].

وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع وعطية وابن زيد: إنَّما قال هذا حينما أخرَج اللهُ كلَّ مؤمن من أصلابهم وأرحامِ نسائهم. وأعقمَ أرْحَام النساء وأصلابَ الرجال قبل العذاب بسبعين سنة[٢]. وقيل: بأربعين[٣]. قال قتادة: ولم يكن فيهم صبيٌّ وقت العذاب.

وقال الحسن وأبو العالية: لو أَهْلَكَ اللهُ أطفالهم معهم كان عذاباً من الله لهم وعدلاً فيهم؛ ولكنَّ الله أهلكَ أطفالَهم وذرِّيتهم بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾[٤] [الفرقان: ٣٧].

الثانية: قال ابن العربيّ[٥]: دعا نوحٌ على الكافرين أجمعين، ودعا النبيُّ ﷺ على من تحزَّب على المؤمنين وألَّب عليهم. وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافرٌ معيَّن لم تُعْلَم خاتمتُه فلا يدعَى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهولٌ، وربما كان عندَ الله معلومَ الخاتمة بالسعادة. وإنما خصَّ النبيُّ ﷺ بالدعاء عُتبةَ وشَيْبَةَ وأصحابَهما[٦]؛ لعلمه بمآلهم، وما كُشِفَ له من الغطاء عن حالهم. والله أعلم.

قلت: قد مضت هذه المسألة مجوَّدة في سورة البقرة[٧] والحمد لله.

الثالثة: قال ابن العربي[٨]: إن قيل: لِمَ جَعَل نوحٌ دعوتَه على قومه سبباً لتوَقُّفه عن طلب الشفاعة للخلق من الله في الآخرة؟ قلنا: قال الناس: في ذلك وجهان:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٠٥ ، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣١٩ ، والطبري ٢٣/ ٢٩١ عن قتادة.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧ من قول محمد بن كعب والربيع وابن زيد.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٧٥ ، والرازي ٣٠/ ١٣٧ من قول مقاتل.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٦٦ ، والرازي في تفسيره ٣٠/ ١٤٧ عن الحسن بنحوه.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٤٨ - ١٨٤٩ .

(٦) أخرجه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٧) ٢/ ٤٨٥ وما بعد.

(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٤٩ .

أحدهما: أن تلك الدعوة نشأت عن غضبٍ وقسوة، والشفاعةُ تكون عن رِضاً ورِقَّة، فخاف أن يُعاتَب بها ويقال: دعوتَ على الكفار بالأمس وتشفعُ لهم اليوم!

الثاني: أنه دعا غضباً بغير نصٍّ ولا إذنٍ صريح في ذلك؛ فخاف الدَّرْكَ[١] فيه يوم القيامة؛ كما قال موسى عليه السلام: إنِّي قَتَلْتُ نَفْساً لم أُومر بقتلها. قال: وبهذا أقول.

قلت: وإن كان لم يؤمر بالدعاء نَصًّا فقد قيل له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾. فأُعلم عواقبهم، فدعا عليهم بالهلاك؛ كما دعا نبيُّنا ﷺ على شَيْبة وعتبة[٢] ونظرائهم فقال: «اللهم عليك بهم»[٣]؛ لمَّا أُعلم عواقبهم؛ وعلى هذا يكون فيه معنى الأمر بالدعاء. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي: من يسكن الديار؛ قاله السدّيُّ[٤]. وأصله: دَيوار على فَيْعال من دار يَدور؛ فقلبت الواو ياءً وأدغمت إحداهما في الأخرى. مثل القيَّام؛ أصله: قَيْوام. ولو كان فعَّالاً لكان دَوَّاراً. وقال القُتَبيُّ[٥]: أصله من الدار، أي: نازل بالدار. يقال: ما بالدار ديَّار، أي: أحد. وقيل: الديّار صاحبُ الدار.

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمِنَيْنِ. وهما:

---

(١) الدرْك: التبعة. القاموس (درك).

(٢) في (ظ) وعقبة.

(٣) سلف تخريجه في الصفحة السالفة، ولفظه في الصحيح: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عقبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط».

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٠٥ .

(٥) في تفسير غريب القرآن ص٤٨٨ ، وذكره عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٧٥ ، والرازي في تفسيره ٣٠/ ١٤٦ .

لمك[١] بن متوشلخ وشمخى بنت أنوش[٢]؛ ذكره القشيريُّ والثعلبيُّ. وحكى الماورديُّ[٣] في اسم أمّه: منجل. وقال سعيد بن جُبَير: أراد بوالديه أباه وجدَّه[٤].

وقرأ سعيد بن جُبَير «لِوَالِدِي» بكسر الدال على الواحد[٥]. قال الكلبيُّ: كان بينه وبين آدم عشرة آباء كلهم مؤمنون[٦]. وقال ابن عباس: لم يكفر لنوح والدٌ فيما بينه وبين آدم عليهما السلام[٧].

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ أي: مسجدي ومُصلَّاي مصلِّياً مصدِّقاً بالله[٨]. وكان إنما يَدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم، فجعل المسجد سبباً للدعاء بالمغفرة. وقد قال النبيُّ ﷺ: «الملائكة تصلّي على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلّى فيه ما لم يُحْدِث فيه تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه» الحديث. وقد تقدَّم[٩]. وهذا قول ابن عباس: «بيتي»: مسجدي[١٠]؛ حكاه الثعلبيُّ وقاله الضحاك[١١].

وعن ابن عباس أيضاً: أي: ولمن دخَل دِيني، فالبيت بمعنى الدِّين[١٢]؛ حكاه القشيريُّ وقاله جُوَيْبِر. وعن ابن عباس أيضاً: يعني صديقي الداخل إلى منزلي؛ حكاه

---

(١) في (د) و(ظ) و(ق): لامك.

(٢) الوسيط ٤/ ٣٦٠ ، والكشاف ٤/ ١٦٥ .

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٠٦ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) القراءات الشاذة ص١٦٢ .

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ١٤٦ من قول عطاء بنحوه.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧ .

(٨) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٠٨ .

(٩) ٢/ ٣٤ ، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(١٠) زاد المسير ٨/ ٣٧٥ .

(١١) النكت والعيون ٦/ ١٠٦ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٠٨ .

(١٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧ .

الماورديُّ[١]. وقيل: أراد داري. وقيل: سفينتي[٢].

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۖ﴾ عامَّةً إلى يوم القيامة؛ قاله الضحاك[٣]. وقال الكلبيُّ: من أمّة محمد ﷺ. وقيل: من قومه؛ والأوّل أظهر.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين. ﴿إِلَّا تَبَارًۢا﴾: إلا هلاكاً، فهي عامَّة في كلِّ كافر ومشرك. وقيل: أراد مشركي قومه، والتَّبَار: الهلاك. وقيل: الخسران؛ حكاهما السُّدّيُّ[٤]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩].

وقيل: التَّبار: الدَّمار، والمعنى واحد[٥]، والله أعلم بذلك. وهو الموفِّق للصواب.

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ١٠٦ وقول جويبر فيه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٦ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٧ بنحوه.

تفسير سورة نوح

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه أرسله إلى قومه آمرا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : بيّن النّذارة ، ظاهر الأمر واضحه ، ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه . ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أى : إذا فعلتم ما أمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم ، غفر الله لكم ذنوبكم .

و « من » هاهنا قيل : إنها زائدة . ولكن القول بزيادتها فى الإثبات قليل . ومنه قول بعض العرب : « قد كان من مطر » . وقيل : إنها بمعنى « عن » ، تقديره : يصفح لكم عن ذنوبكم . واختاره ابن جرير [(١)] . وقيل : إنها للتبعيض ، أى: يغفر لكم الذنوب العظام التى وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام .

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : يمد فى أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذى إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه ، أوقعه بكم [(٢)] .

وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم ، يزاد بها فى العمر حقيقة ؛ كما ورد به الحديث : « صلة الرحم تزيد فى العمر » .

وقوله : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ، فإنه إذا أمر [الله] [(٣)] تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ، فإنه العظيم الذى قهر كل شىء ، العزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي

---

(١) تفسير الطبرى (٢٩/ ٥٧) .

(٢) فى أ : « أو يعذبكم » . (٣) زيادة من أ .

كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا(١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ،أنه اشتكى إلى ربه، عز وجل ،ما لقى من قومه، وما صبر عليهم فى تلك المدة الطويلة التى هى ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴾ أى : لم أترك دعاءهم فى ليل ولا نهار ، امتثالا لأمرك وابتغاءً لطاعتك ، ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا ﴾ أى: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فَروا منه وحَادُوا عنه ، ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أى : سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه . كما أخبر تعالى عن كفار قريش :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت:٢٦].

﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ : قال ابن جريج ، عن ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم . وقال سعيد ابن جبير ، والسدى : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول .

﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ أى : استمروا على ما هم فيه [(١)] من الشرك والكفر العظيم الفظيع ، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أى : واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له .

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أى : جهرة بين الناس ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾ أى : كلاما ظاهرا بصوت عال ، ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أى : فيما بينى وبينهم، فَنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أى : ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه [(٢)] مهما كانت فى الكفر والشرك ؛ ولهذا قال: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ أى : متواصلة الأمطار . ولهذا يستحب قراءة هذه السورة فى صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية . وهكذا روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : أنه صعد المنبر ليستسقى ، فلم يزد على الاستغفار ، وقرأ الآيات فى الاستغفار . ومنها

---

(١) فى م:« ما هم عليه » .　(٢) فى أ: « ولو كان ذنبه » .

هذه الآية :﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء [1] التى ستنزل بها المطر .

وقال ابن عباس وغيره :يتبع بعضه بعضا .

وقوله : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أى : إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه ،كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ،وأَدَرَّ لكم الضّرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أى : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها .

هذا مقام الدعوة بالترغيب . ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أى : عظمة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقال ابن عباس : لا تعظمون الله حق عظمته ، أى : لا تخافون من بأسه ونقمته ، ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قيل : معناه من نطفة ، ثم من علقة ،ثم من مضغة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ،وقتادة ، ويحيى بن رافع ، والسدى ، وابن زيد .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ؟ أى : واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط ؟ أو هى من الأمور المدركة بالحس ، مما علم من التسيير والكسوفات ، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضا ، فأدناها القمر فى السماء الدنيا وهو يكسف ما فوقه، وعطارد فى الثانية ، والزهرة فى الثالثة ، والشمس فى الرابعة ، والمريخ فى الخامسة ، والمشترى فى السادسة ، وزُحل فى السابعة . وأما بقية الكواكب ــ وهى الثوابت ــ ففى فَلَك ثامن يسمونه فَلَكَ الثوابت . والمتشرعون منهم يقولون : هو الكرسى ، والفلك التاسع ، وهو الأطلس . والأثير عندهم الذى حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك ، وذلك أن حركته مبدأ الحركات ، وهى من المغرب إلى المشرق ؛ وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب ، ومعها يدور سائرالكواكب تبعا ، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها ، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق . وكل يقطع فلكه بحسبه ، فالقمر يقطع فلكه فى كل شهر مرة ، والشمس فى كل سنة مرة ، وزحل فى كل ثلاثين سنة مرة ، وذلك بحسب اتساع أفلاكها ،وإن كانت حركة الجمع فى السرعة متناسبة . هذا ملخص ما يقولونه فى هذا المقام ، على اختلاف بينهم فى مواضع كثيرة ،لسنا بصدد بيانها ، وإنما المقصود أن الله سبحانه :﴿ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا .وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أى : فاوت بينهما فى الاستنارة ،فجعل كلا منهما أنموذجا على حدة ، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر القمر منازل وبروجا ، وفاوت نوره ،فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع فى النقص حتى يستسر ، ليدل على مضى الشهور والأعوام ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ

(١) فى م :« بمجادح » ، وفى أ : « بمخارج » .

يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥] .

وقوله : ﴿ **وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا** ﴾ : هذا اسم مصدر ، والإتيان به هاهنا أحسن ، ﴿ **ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا** ﴾ أى : إذا متم ﴿ **وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا** ﴾ أى : يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا** ﴾ أى : بسطها ومهدها وقررها وثَبّتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿ **لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا** ﴾ أى : خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها [(١)] أين شئتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح، عليه السلام على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناءً ، والأرض مهادا ، وأوسع [(٢)] على خلقه من رزقه ، فهو الذى يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد ؛ لأنه لا نظير له ولا عَديل[(٣)] له ، ولا ندّ ولا كفء ، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلى الكبير .

﴿ **قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤)** ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نوح، عليه السلام ، أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذى لا يعزب عنه شىء، أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المتشملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى : أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه ، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غَفَل عن أمر الله ، ومتع بمال وأولاد ، وهى فى نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام ؛ولهذا قال : ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا** ﴾ : قُرئ ﴿**وَوُلْده**﴾ بالضم وبالفتح ، وكلاهما متقارب .

وقوله: ﴿ **وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا** ﴾ ، قال مجاهد: ﴿ **كُبَّارًا** ﴾ أى : عظيماً .وقال ابن زيد: ﴿ **كُبَّارًا**﴾ أى : كبيرا. والعرب تقول: أمر عجيب وعُجَاب وعُجَّاب . ورجل حُسَان . وحُسَّان : وجُمَال وجُمَّال، بالتخفيف والتشديد ، بمعنى واحد .

والمعنى فى قوله : ﴿ **وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا** ﴾ أى : بأتباعهم فى تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى ، كما يقولون لهم يوم القيامة : ﴿ **بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا** ﴾ [سبأ: ٣٣] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ **وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا . وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾ . وهذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله .

قال البخارى : حدثنا إبراهيم ، حدثنا هشام ، عن ابن جريج ، وقال عطاء ، عن ابن عباس : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد : أما وَد: فكانت لكلب بدَومة الجندل ؛ وأما

---

(١) فى م : « منها » . (٢) فى م :« ووسع » . (٣) فى م ، أ : « ولا عدل » .

سواع: فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبنى غُطَيف بالجُرُف عند سبأ ، وأما يَعوقُ: فكانت لهَمْدان ، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذى كَلاع،وهى [(١)] أسماء رجال صالحين من قوم نوح، عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم .ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ [(٢)] العلم عُبِدت [(٣)] .

وكذا رُوى عن عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، وابن إسحاق ، نحو هذا .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هذه أصنام كانت[(٤)] تعبد فى زمن نوح .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس ﴿ [ويغُوثَ] [(٥)]وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صَوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقَون المطر ، فعبدوهم [(٦)] .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة شيث، عليه السلام ، من طريق إسحاق بن بشر قال : وأخبرنى جُويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس أنه قال : ولد لآدم ،عليه السلام ، أربعون ولدا،عشرون غلاما وعشرون جارية،فكان ممن عاش منهم:هابيل،وقابيل ،وصالح ،وعبد الرحمن ــ والذى كان سماه عبد الحارث ــ ووَدّ ، وكان وَدّ يقال له « شيث » ويقال له : « هبة الله » وكان إخوته قد سَوّدوه ، وولد له سَوَاع ويغوث ويعوق ونسر [(٧)].

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو عُمَر الدّورىُّ ، حدثنى أبو إسماعيل المؤدّب ، عن عبد الله بن مسلم بن هُرمز عن أبى حزْرَة ، عن عروة بن الزُّبير قال : اشتكى آدم، عليه السلام ، وعنده بنوه : ود ، ويغوث ،[ويعوق] [(٨)] ،وسواع، ونسر ــ وكان وَدّ أكبرَهم وأبرَّهم به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا يعقوب ، عن أبى المطهر قال :ذكروا عند أبى جعفر ــ وهو قائم يصلى ــ يزيد بن المهلب ، قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيدَ بن المهلب ، أما إنه قتل فى أول أرض عُبد فيها غيرُ الله . قال : ثم ذكر وداً ــ قال : وكان وَدٌّ رجلا مسلما وكان محببا فى قومه ، فلما مات عسكروا حول قبره فى أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جزَعهم عليه ، تشبه فى صورة إنسان ، ثم قال : إنى أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله ، فيكونَ فى ناديكم فتذكرونه ؟ قالوا :

---

(١) فى أ : « ونسرا وهى » . (٢) فى م : « ونسخ » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٠) .

(٤) فى م : « كانت هذه أصنام » .

(٥) زيادة من م .

(٦) تفسير الطبرى (٢٩/ ٦٢) .

(٧) تاريخ دمشق (٨/ ١٦٥ « المخطوط») .

(٨) زيادة من م ، أ .

نعم. فصُوِّر لهم مثله ، قال : ووضعوه فى ناديهم وجعلوا يذكرونه .فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل فى منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ، فيكون (١) له فى بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم. قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله ، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به ، قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به ، وتناسلوا ودَرَس أمر ذكرهم إياه ، حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ،فكان أول ما عبد غير الله : الصنم الذى سموه وَدّا .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ﴾ يعنى: الأصنام التى اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا ، فإنه استمرت عبادتها فى القرون إلى زماننا هذا فى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم . وقد قال الخليل، عليه السلام، فى دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾[إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

وقوله : ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالاً ﴾ : دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم ، كما دعا موسى على فرعون ومثله فى قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس:٨٨] .وقد استجاب الله لكل من النبيين فى قومه ، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مِمَّا خَطَايَاهُمْ ﴾ وقرئ : ﴿ خَطِيئَاتِهِمْ﴾ ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ أى : نقلوا من تيار البحار (٢) إلى حرارة النار ، ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ أى : لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله كقوله : ﴿ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣] .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أى : لا تترك على [وجه] (٣) الأرض منهم أحداً ولا تُومُريًّا (٤) وهذه من صيغ تأكيد النفى .

قال الضحاك : ﴿ دَيَّارًا ﴾ : واحدا . وقال السُّدِّى : الديار : الذى يسكن الدار .

فاستجاب الله له ، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل عن أبيه ، وقال : ﴿سَآوِى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣].

---

(١) فى م : « ليكون » .
(٢) فى م :« البحر ».
(٣) زيادة من م ،أ .
(٤) فى م : « ولاد ومريا » .

وقال ابن أبى حاتم : قرئ [١] على يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى شَبيب ابن سعد ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو رحم الله من قوم نوح أحدا ، لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت[٢] به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها . فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة » [٣] .

هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات . ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح، عليه السلام، وهم الذين أمره الله بحملهم معه .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أى : إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك ، أى : الذين تخلقهم بعدهم ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أى : فاجراً فى الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

ثم قال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ : قال الضحاك : يعنى :مسجدى ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن ، وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حَيْوَة ، أنبأنا سالم بن غَيْلان : أن الوليد بن قيس التُّجِيبىّ أخبره: أنه سمع أبا سعيد الخدرى ـ أو : عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد : ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا تصحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » .

ورواه أبو داود والترمذى ، من حديث عبد الله بن المبارك ، عن حيوة بن شريح ، به [٤] . ثم قال الترمذى : إنما نعرفه من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ : دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يَعُم الأحياءَ منهم والأموات ؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء ، اقتداء بنوح ،عليه السلام ، وبما جاء فى الآثار ، والأدعية [المشهورة] [٥] المشروعة .

وقوله : ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا ﴾ : قال السدى : إلا هلاكا . وقال مجاهد : إلا خسارا ، أى : فى الدنيا والآخرة .

آخر تفسير سورة « نوح » [عليه السلام ولله الحمد والمنة] [٦]

---

(١) فى هـ : « لما قرئ » والمثبت من م ،أ . (٢) فى م: « فلما بلغ الماء رأسها صعدت » .

(٣) وله شاهد من حديث عائشة رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٥٩١) والحاكم فى المستدرك (٢/٣٤٢) من طريق سعيد بن أبى مريم ، عن موسى بن يعقوب ، عن فائد مولى عبيد الله بن على بن أبى رافع :أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبى » وذكره نحوه ، وقال الحاكم :« صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى بقوله : « إسناده مظلم ، وموسى بن يعقوب المذكور فى إسناده ليس بذاك » .

(٤) المسند (٣/٣٨) وسنن أبى داود برقم (٤٨٣٢) وسنن الترمذى برقم (٢٣٩٥) .

(٥) زيادة من م . (٦) زيادة من أ .

سورة نوح عليه السلام

مكيّة،[1] وهي تسع أو ثمان وعشرون آيةً.[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أنذرهم، على أنّ ﴿أَنْ﴾ مصدريّة حُذف منها الجارّ وأوصِل إليها الفعل، فإنّ حذفه مع "أنْ" و"أنّ" مُطّرِد، وجُعِلت صلتُها أمرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، لأنّ مدار وصلها بصيغ الأفعال دلالتُها على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبريّة والإنشائيّة، ووجوبُ كون الصلة خبريّة في الموصول الاسمي إنّما هو للتوصّل إلى وَصْف المعارف بالجمل، وهي لا تُوصَف إلّا بالجمل الخبريّة، وليس الموصول الحرفي كذلك، وحيث استوى الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر استويا في صحّة الوصل بهما، فيتجرّد عند ذلك كلّ منهما عن المعنى الخاصّ بصيغته، فيبقى الحدث المجرّد عن معنى الأمر والنّهي والمُضيّ والاستقبال، كأنّه قيل: أرسلناه بالإنذار.

وقيل: المعنى أرسلناه بأن قلنا له: أنذِر، أي: أرسلناه بالأمر بالإنذار. ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسِّرةً لِما في الإرسال مِن معنى القول،[3] فلا يكون للجملة محلّ مِن الإعراب، وعلى الأوّل محلّها النصب عند سيبويهِ والفرّاء،

---

[1] س – مكّيّة.

[2] س – وهي تسع أو ثمان وعشرون آية؛ س + وآيها تسع وعشرون أو ثمان وعشرون.

[3] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٤٤.

والجرُّ عند الخليل والكسائي كما هو المعروف.[١] وقُرئ: "أَنْذِرْ"[٢] بغير "أَنْ" على إرادة القول.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاجل أو آجل لئلّا يبقى لهم عُذر ما أصلًا.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية إرساله عليه السلام بالوجه
[٢٢٨و] المذكور، / كأنّه قيل: فما فعل عليه السلام؟ فقيل: قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مُنذِر موضِّح لحقيقة الأمر.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ متعلِّق بـ﴿نَذِيرٌ﴾ على الوجهين المذكورين.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعض ذنوبكم، وهو ما سلَف في الجاهليّة، فإنّ الإسلام يجبّه.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الأمد الأقصى الذي قدّره الله تعالى لهم بشرط الإيمان والطاعة وراء ما قدّره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان، فإنّ وَصْف الأجل بالمسمّى وتعليقَ تأخيرهم إليه بالإيمان والطاعة صريحٌ في أنّ لهم أجلًا آخرَ لا يُجاوزونه إن لم يؤمنوا، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما قُدّر لكم على تقدير بقائكم على الكفر ﴿إِذَا جَآءَ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه مِن الكفر ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادِرُوا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتّى لا يتحقّق شرطه الذي هو بقاؤكم على الكفر فلا يجيءَ، ويتحقّقَ شَرْط التأخير إلى الأجل المسمّى فتُؤخَّروا إليه.

ويجوز أن يُراد به وقتُ إتيان العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فإنّه أَجَل موقَّت له حتمًا، وحَمْله على الأجل الأطول[٣] ممّا لا يساعده المقام؛ كيف لا، والجملةُ تعليل للأمر بالعبادة المُستتبِعة للمغفرة والتأخير إلى الأجل المسمّى، فلا بدّ أن يكون المنفيّ عند مجيء

---

١ انظر مذاهبهم وتفصيلها في شرح الرضيّ على الكافية، ١٣٧/٤.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.
٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٦٤/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٠/٣.

الأجل هو التأخير الموعود، فكيف يُتصوَّر أن يكون ما فُرض مجيئه هو الأجل المسمّى.

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كنتم تعلمون شيئًا لسارعتم إلى ما أمرتكم به.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾

﴿قَالَ﴾ أي: نوح عليه السلام مناجيًا ربّه وحاكيًا له تعالى -وهو أعلم بحاله- ما جرى بينه وبين قومه مِن القيل والقال في تلك المُدَد الطوال بعد ما بذل في الدعوة غاية المجهود وجاوز في الإنذار كلّ حدّ معهود وضاقت عليه الحِيَل وعيَّت به العِلَل: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى الإيمان والطّاعة ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: دائمًا مِن غير فتور ولا توانٍ، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ممّا دعوتهم إليه. وإسنادُ الزيادة إلى الدعاء لسببيّته لها، كما في قوله تعالى: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال، ٨/٢].

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ أي: إلى الإيمان ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببه ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ / فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: سدّوا مسامعهم مِن استماع الدعوة ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: [٢٢٤و]
بالغوا في التغطّي بها، كأنّهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تُغشِّيَهم لئلّا يُبصروه كراهة النظر إليه، أو لئلّا يعرفهم فيدعوهم. ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: أكبّوا على الكفر والمعاصي، مستعار مِن "أصرّ الحمار على العانة"[1] إذا صَرّ أذُنيه وأقبل عليها. ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن اتّباعي وطاعتي ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ شديدًا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: دعوتهم تارةً بعد تارة ومرّةً غِبّ مرّة على وجوه متخالِفة وأساليبَ متفاوتة. و﴿ثُمَّ﴾

---

[1] العانة: الأتان، والقطيع مِن حُمُر الوحش. لسان العرب لابن منظور، «عنن».

لتفاوت الوجوه، فإنّ الجهار أشدّ مِن الإسرار، والجمع بينهما أغلظ مِن الإفراد، أو لتراخي بعضها مِن بعض، و﴿جِهَارًا﴾ منصوب بـ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ على المصدر؛ لأنّه أحد نوعَي الدعاء، أو أريدَ بـ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ جاهَرتُهم، أو هو صفة لمصدر، أي: دعوتهم دعاءً جهارًا، أي: مجاهرًا به، أو مصدر في موقع الحال، أي: مجاهرًا.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر والمعاصي ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتّائبين، كأنّهم تعلّلوا وقالوا: إن كنّا على الحقّ فكيف نتركه، وإن كنّا على الباطل فكيف يقبلنا بعد ما عكفنا عليه دهرًا طويلًا، فأمَرهم بما يمحَق ما سلَف منهم مِن المعاصي ويجلِب إليهم المنافع، ولذلك وعَدهم بما هو أوقَع في قلوبهم وأحبّ إليهم مِن الفوائد العاجلة. وقيل: لمّا[1] كذّبوه بعد تكرير الدعوة حبَس الله تعالى عنهم القطر وأعقَم أرحام نسائهم أربعين سنةً. وقيل: سبعين سنةً فوعَدهم أنّهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخِصبَ ويدفع عنهم ما كانوا فيه.[2]

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: كثيرَ الدُّرور، والمراد بالسماء المُظلّة أو السحاب.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها
﴿أَنْهَٰرًا﴾ / جاريةً. [٢٢٩و]

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ
سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله تعالى وقارًا، على أنّ الرجاء بمعنى الاعتقاد، و﴿لَا تَرْجُونَ﴾ حال مِن ضمير المخاطَبين، والعامل فيها معنى الاستقرار في ﴿لَكُمْ﴾، على أنّ الإنكار متوجّه إلى السبب فقط مع تحقّق مضمون الجملة الحاليّة، لا إليهما معًا كما في قوله تعالى:

[1] س: كما.

[2] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٥.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس، ٢٢/٣٦]. و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّق بمضمر وقَع حالًا مِن ﴿وَقَارًا﴾، ولو تأخَّر لكان صفةً له، أي: أيّ سبب حصَل لكم حالَ كونكم غيرَ معتقدين لله تعالى عظمةً موجِبةً لتعظيمه بالإيمان به والطاعة له.

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ أي: والحال أنكم على حال منافية لِما أنتم عليه بالكلّيّة، وهي أنكم تعلمون أنّه تعالى خلَقكم تاراتٍ عناصرَ ثمّ أغذيةً ثمّ أخلاطًا ثمّ نُطفًا ثمّ عَلَقًا ثمّ مُضَغًا ثمّ عِظامًا ولُحومًا ثمّ أنشأكم خَلْقًا آخرَ، فإنّ التقصير في توقير مَن هذه شئونه في القُدرة القاهرة والإحسان التامّ مع العِلم بها ممّا لا يكاد يصدر عن العاقل.

هذا وقد قيل: الرجاء بمعنى الأمل، أي: ما لكم لا تأملون له تعالى توقيرًا، أي: تعظيمًا لمَن عبده وأطاعه، ولا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله تعالى إيّاكم في دار الثواب، و﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقَّر، ولو تأخَّر لَكان صلةً للوقار.[١]

والأوّل هو الذي يستدعيه الجَزالة التنزيليّة، فإنّ اللائق بحال الكفَرة استبعادُ ألّا يعتقدوا وقارًا لله وعظمَته مع مشاهدتهم لآثارها وأحكامها الموجِبة للاعتقاد حتمًا، وأمّا عدم رجائهم لتعظيم الله إيّاهم في دار الثواب فليس في حيّز الاستبعاد والإنكار مع أنّ في جَعْل الوقار بمعنى التوقير مِن التعسّف. وفي قوله:[٢] «و﴿لِلَّهِ﴾ بيانٌ للموقَّر ولو تأخَّر لَكان صلةً للوقار»[٣] مِن التناقض ما لا يخفى، فإنّ كونه بيانًا للموقَّر يقتضي أن يكون التوقير صادرًا عنه تعالى والوقارُ وصفًا للمخاطَبين، وكونُه صلةً للوقار يوجِب كونَ الوقار وصفًا له تعالى.

وقيل: ما لكم لا تخافون لله عظَمةً وقُدرةً على أَخْذكم بالعقوبة، أي: أيُّ عُذر لكم في تَرْك الخوف منه تعالى.[٤] وعن سعيد بن جُبير / عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ما لكم لا تخشَون لله عقابًا ولا ترجُون منه ثوابًا»، [٢٢٩ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤.
٢ س + تعالى.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٢/٣.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤.

وعن مجاهدٍ والضحّاك: «ما لكم لا تُبالون لله عظمةً»،[١] قال قُطْرُب: «هي لغة حِجازيّة، يقولون: لم أرجُ، أي: لم أبالِ».[٢]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: متطابقةً بعضها فوق بعض.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: منوِّرًا لوجه الأرض في ظلمة الليل، ونسبتُه إلى الكلّ مع أنّه في السماء الدنيا لِما أنّها محاطَة بسائر السماوات، فما فيها يكون في الكلّ، ولأنّ كلّ واحدة منها شفّافة لا تحجب ما وراءها، فيُرى الكلّ كأنّها سماء واحدة، ومِن ضرورة ذلك أن يكون ما في واحدةٍ منها كأنّه في الكلّ.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يُزيل ظلمة الليل، ويُبصر أهل الدنيا في ضوئها وجهَ الأرض، ويشاهدون الآفاق كما يبصِر أهلُ البيت في ضوء السِّراج ما يحتاجون إلى إبصاره، وليس القمر بهذه المثابة، إنّما هو نور في الجملة.[٣]

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي: أنشأكم منها فاستُعير الإنبات للإنشاء لكونه أدلَّ على الحدوث والتكوّن مِن الأرض، و﴿نَبَاتًا﴾ إمّا مصدر مؤكِّد لـ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ بحذف الزوائد، ويسمّى اسمَ مصدر، أو لِما يترتّب عليه مِن فعله، أي: أنبتَكم مِن الأرض فنبتّم نباتًا. ويجوز أن يكون الأصل: أنبتكم مِن الأرض إنباتًا فنبتُّم نباتًا، فيُحذف مِن الجملة الأولى المصدر ومِن الثانية الفعل اكتفاءً في كلّ منهما بما ذُكر في الأخرى، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ [البقرة، ١٠٨/٢]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس، ١٠٧/١٠].

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بالدّفن عند موتكم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿إِخْرَاجًا﴾ محقّقًا لا ريبَ فيه.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلّبون عليها تقلُّبكم على بُسُطكم في بيوتكم. وتوسيطُ ﴿لَكُمُ﴾ بين الجَعْل ومفعوليه مع أنّ حقّه التأخّر لِما مرّ مرارًا

---

١ كلاهما بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣١/٨، واللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٩.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٩.

٣ س - في الجملة.

مِن الاهتمام ببيان كون المجعول مِن منافعهم والتشويقِ إلى المؤخَّر، فإنّ النفس عند تأخير ما حقُّه التقديم لا سيّما عند كون المقدَّم مُلوِّحًا بكونه مِن المنافع تبقى[1] مترقِّبةً له فيتمكَّن عند وروده لها فضلَ تمكُّن.

﴿لِتَسْلُكُواْ/ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي: طُرقًا واسعةً جَمْع "فجّ"، وهو الطريق الواسع. وقيل: هو المَسلَك بين الجبلين.[2] و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بما قبلها لِما فيه مِن معنى الاتّخاذ، أو بمضمر هو حال مِن ﴿سُبُلًا﴾، أي: كائنةً مِن الأرض، ولو تأخَّر لَكان صفةً لها. [٢٣٠و]

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ أعيدَ لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربّه، أي: قال مناجيًا له تعالى: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي: تمّوا على عصياني فيما أمرتُهم به مع ما بالغتُ في إرشادهم بالعِظة والتذكير.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: واستمرّوا على اتّباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرّتهم أولادهم، وصار ذلك سببًا لزيادة خسارهم في الآخرة فصاروا أسوةً لهم في الخَسار، وفي وصفهم بذلك إشعار بأنّهم إنّما اتّبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد لِما شاهدوا فيهم مِن شبهة مصحِّحة للاتّباع في الجملة. وقُرئ: "وَوُلْدُهُ"[3] بالضمّ والسكون على أنّه لغة كـ"الحُزْن" أو جمع كـ"الأُسد".

﴿وَمَكَرُواْ﴾ عطفٌ على صلة ﴿مَن﴾ والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُول باعتبار لفظها. ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي: كبيرًا في الغاية.

---

[1] السياق: فإنّ النفس... تبقى...

[2] القول في اللباب لابن عادل، ٣٩١/١٩.

[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.

وقُرئ بالتخفيف،[١] والأوّل أبلغ منه، وهو أبلغ مِن "الكبير"، وذلك احتيالهم في الدِّين وصدّهم للناس عنه وتحريشهم لهم على أذيّة نوح عليه السلام.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا عبادتها على الإطلاق إلى عبادة ربّ نوح ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي: ولا تذَرُنّ عبادة هؤلاء، خصّوها بالذِّكر مع اندراجها فيما سبق لأنّها كانت أكبرَ أصنامهم وأعظمَها عندهم، وقد انتقلت هذه الأصنام عنهم إلى العرب فكان وَدّ لكلب وسُواعٌ لهَمْدان ويغوثُ لمَذْحِج ويعوقُ لمُراد ونَسْر لحِمْيَر.

[٢٣٠ظ] وقيل: هي أسماء رجال / صالحين كانوا بين آدمَ ونوح. وقيل: مِن أولاد آدمَ عليه السلام، ماتوا فقال إبليسُ لمَن بعدهم: لو صوّرتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم وتتبرّكون بهم ففعلوا، فلمّا مات أولئك قال لمَن بعدهم: إنّهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم. وقيل: كان وَدّ على صورة رجل، وسُواعٌ على صورة امرأة، ويغوثُ على صورة أسد، ويعوقُ على صورة فرَس، ونَسْر على صورة نسر.[٢]

وقُرئ: "وُدًّا"[٣] بضمّ "الواو" و"يَغُوثًا ويَعُوقًا"[٤] للتناسب، ومَنْعُ صرفهما للعُجمة والعَلَميّة.

﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ﴾ أي: الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ خَلقًا كثيرًا، أو الأصنام كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم، ٣٦/١٤].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ على حكاية كلام نوح بعد ﴿قَالَ﴾، وبعد "الواو" النائبة عنه، أي: قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾، وقال: ﴿لَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾. ووَضْعُ الظّاهر موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المُفرط، وتعليلُ الدعاء عليهم به. والمطلوبُ هو الضّلال

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال وعيسى بن عمر الثقفي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢.

٢ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٧/٤.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش والأشهب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢، شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.

في تمشية مكرهم ومصالح دنياهم أو الضياع والهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر، ٤٧/٥٤]، ويؤيّده ما سيأتي مِن دعائه عليه السلام.

﴿مِمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ أي: مِن أجل خطيئاتهم، و﴿مَا﴾ مزيدة بين الجارّ والمجرور للتوكيد والتفخيم، ومَن لم يرَ زيادتها جعَلها نكرةً وجَعَل ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ بدلًا منها. وقُرئ: "مِمَّا خَطَايَاهُمْ"[1] و"مِنْ خَطِيَّاتِهِمْ"،[2] أي: بسبب خطيئاتهم المعدودة وغيرها مِن خطاياهم. ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان لا بسبب آخر ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ المراد إمّا عذابُ القبر فهو عَقيب الإغراق، وإن كانوا في الماء. عن الضحّاك أنّهم كانوا يُغْرَقون مِن جانب ويُحْرَقون مِن جانب،[3] أو عذابُ جهنّم،[4] والتعقيب لتنزيله منزلةَ المتعقّب لإغراقهم لاقترابه وتحقُّقه لا محالةَ. وتنكير "النار" إمّا لتعظيمها وتهويلها، أو لأنّه تعالى أعدّ لهم على حسب خطيئاتهم نوعًا مِن النّار.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: لم يجد أحد منهم واحدًا مِن الأنصار. وفيه تعريضٌ باتّخاذهم آلهة مِن دون الله تعالى وبأنّها غير قادرة على نصرهم، وتهكّمٌ بهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ عطفٌ على نظيره السابق. وقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾... إلخ، اعتراضٌ وُسِّط بين دُعائَيه عليه السلام للإيذان مِن أوّل الأمر، بأنّ ما أصابهم / مِن الإغراق والإحراق لم يصبهم إلّا [٢٣١و]
لأجل خطيئاتهم التي عدَّدها نوح وأشار إلى استحقاقهم للإهلاك لأجلها، لا أنّها حكاية لنفس الإغراق والإحراق، على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم مِن الأحوال والأقوال وإلّا لأخّر عن حكاية دعائه هذا. و﴿ديّارًا﴾

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٤٦٧/٤.
٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٣/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٨/٤.
٤ السياق: إمّا عذاب القبر... أو عذاب جهنّم...

مِن الأسماء المستعمَلة في النفي العامّ، يقال: "ما بالدار ديّار أو ديّور" كـ"قيّام" و"قيّوم"، أي: أحدٌ، وهو "فَيْعال" مِن "الدَّور" أو مِن "الدَّار"، أصله "دَيْوَار" قد فُعل به ما فُعل بأصل "سيّد"، لا "فعّال" وإلّا لكان "دوّارًا".[١]

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ عليها كلًّا أو بعضًا ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ عن طريق الحقّ ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي: إلّا مَن سيفجُر ويكفر، فوَصَفهم بما يصيرون إليه،[٢] وكأنّه اعتذار ممّا عسى يرِد عليه مِن أنّ الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون مِن أخلافهم مَن يؤمن مُنكَر، وإنّما قاله لاستحكام عِلمه بما يكون منهم ومِن أعقابهم بعدما جرّبهم واستقرأ أحوالهم قريبًا مِن ألف سنةٍ.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ أبوه مُتَوَشْلِخُ وأمّه شمخا بنت أنوش كانا مؤمنين. وقيل: هما آدمُ وحوّاءُ.[٣] وقُرئ: "وَلِوَلَدَيَّ"[٤] يريد سامًا وحامًا. ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ أي: منزلي. وقيل: مسجدي. وقيل: سفينتي.[٥] ﴿مُؤْمِنًا﴾ بهذا القيد خرجت امرأته وابنه كنعان، ولكن لم يجزم عليه السلام بخروجه إلّا بعد ما قيل له: إنّه ليس مِن أهلك، وقد مرّ تفصيله في سورة هود.[٦] ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عمّهم بالدّعاء إثرَ ما خصّ به مَن يتّصل به نسبًا ودينًا.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: هلاكًا. قيل: غرِق معهم صبيانهم أيضًا، لكنْ لا على وجه العقاب لهم؛ بل لتشديد عذاب آبائهم وأمّهاتهم بإراءة هلاك أطفالهم الذين كانوا أعزّ عليهم مِن أنفسهم.[٧]

قال عليه السلام: «يهلِكون مَهلِكًا واحدًا ويصدرون مصادرَ شتّى»،[٨] وعن الحسن أنّه سئل عن ذلك فقال: «عَلِم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب»،[٩]

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بن عليّ والزُهري وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.

٦ في الآية السادسة والأربعين منها.

٧ القول بمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨-٤٦٩.

٨ مسند أحمد، ٤١/٢٥٧ (٢٤٧٣٨)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٢١٠ (٢٨٨٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٩.

٩ ما وجدته في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٩.

وقيل: / أعقَم الله تعالى أرحامَ نسائهم وأيبَس أصلاب آبائهم قبل الطّوفان [٢٣١ظ]
بأربعين أو سبعين سنةً فلم يكن معهم صبيّ حين غرقوا.[١]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة نوح كان مِن المؤمنين الذين تُدرِكهم دعوة نوح عليه السلام».[٢]

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٦٩.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٧/٣٨٤ (نوح، ٧١/١)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/٢٥٦ (نوح، ٧١/١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٦٩. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سُورَةُ نُوحٍ
عليه السلام

مكيَّة بالاتفاق، وهي ثمان وعشرون آية في الكوفي، وتسع في البصري والشامي، وثلاثون فيما عدا ذلك.

ووجه اتِّصالها بما قبلها على ما قال الجلال السيوطيُّ[1] ـ وأشار إليه غيره ـ أنه سبحانه لمَّا قال في سورة المعارج: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ عقَّبه تعالى بقصة قوم نوح عليه السلام المشتملةِ على إغراقهم عن آخرهم بحيث لم يَبْقَ منهم في الأرض ديَّار، وبدَّل خيراً منهم، فوقعت موقعَ الاستدلال والاستظهار لتلك الدعوى، كما وقعت قصة أصحاب الجنَّة في سورة «ن» موقعَ الاستظهار لما ختم به تبارك هذا، مع تواخي مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعد به الكافرون.

ووجه الاتصال على قول مَن زعم أنَّ السائل هو نوح عليه السلام ظاهر، وفي بعض الآثار ما يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ يقرؤها على قوم نوح عليه السلام يوم القيامة، أخرج الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً قال: «إنَّ الله تعالى يدعو نوحاً وقومَه يوم القيامة أوَّلَ الناس، فيقول: ماذا أجبتم نوحاً؟ فيقولون: ما دعانا وما بلَّغنا ولا نصحنا ولا أمرنا ولا نهانا. فيقول نوح عليه السلام: دعوتهم يا ربِّ دعاء فاشياً في الأوَّلين والآخِرين أمة بعد أمة، حتى انتهى إلى خاتم النبيين أحمدَ ﷺ، فانْتَسَخه وقرأه وآمنَ به وصدَّقه. فيقول الله عزَّ وجلَّ للملائكة عليهم السلام: ادعوا أحمد وأمَّته. فيَدْعونهم، فيأتي رسولُ الله ﷺ وأمَّتُه يسعى نورهم بين أيديهم،

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور ص٨٨.

فيقول نوح عليه السلام لمحمَّد ﷺ وأمَّتِه: هل تعلمون أنِّي بلَّغتُ قومي الرسالة، واجتهدتُ لهم بالنصيحة، وجهدت أن أستنقذهم من النار سرّاً وجهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً. فيقول رسولُ الله ﷺ وأمَّتُه: فإنَّا نشهد بما أنشدتنا أنَّك في جميع ما قلت من الصادقين. فيقول قومُ نوح عليه السلام: وأنَّى علمتَ هذا أنت وأمَّتُك ونحن أوَّل الأمم وأنتُم آخِرُ الأمم؟! فيقول رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ حتى يختم السورة، فإذا ختمها، قالت أمَّتُه: نشهد أنَّ هذا لهو القصصُ الحقُّ، وما مِن إله إلا الله، وأنَّ الله لهو العزيز الحكيم. فيقول الله عزَّ وجلَّ عند ذلك: امتازوا اليومَ أيُّها المجرمون»[١].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ هو اسم أعجميٌّ، زاد الجواليقيُّ: معرَّب[٢]. والكرمانيُّ: معناه بالسريانية: الساكن[٣]، وصُرِفَ؛ لعدم زيادته على الثلاثة مع سكون وسطه، وليس بعربيٍّ أصلاً، وقول الحاكم في «المستدرك»[٤]: إنما سُمِّيَ نوحاً؛ لكثرة نَوْحِه وبكائه على نفسه، واسمه: عبد الغفَّار. لا أظنُّه يصحُّ، وكذا ما ينقل في سبب بكائه من أنه عليه السلام رأى كلباً أجرب قذراً، فبصق عليه فأنطقه الله تعالى، فقال: أتعيبني أم تعيب خالقي؟! فندم وناح لذلك.

والمشهور أنه عليه السلام: ابن لَمْك[٥] ـ بفتح اللام وسكون الميم بعدها

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٧، والمستدرك ٢/ ٥٤٧-٥٤٨.
(٢) المعرَّب ص٣٧٨.
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٢٤٨.
(٤) لم نقف عليه في مطبوعه، والقول ذكره العيني في عمدة القاري ١٥/ ٢١٧ دون عزوه للحاكم.
(٥) جاء في هامش الأصل: ويقال: لامك، بفتح الميم وكسرها، وكان تقياً صالحاً، وفي زمانه كثرت الجبابرة من ولد قابيل، عاش ثمان مئة سنة. منه.
وورد أيضاً: يقال: استخلفه إدريس بأمر الله تعالى قبل رَفْعِه، وهو فيما قيل: أول من ركب الخيل وجاهد، عاش تسع مئة واثنتين وثمانين سنة، وتوفي في أيلول. منه.

كاف - ابن مَتُّوشَلَخ - بفتح الميم وتشديد المثناة المضمومة بعدها واو ساكنة وفتح الشين المعجمة واللام والخاء المعجمة - ابن خَنُوخ - بفتح الخاء المعجمة[1] وضمِّ النون الخفيفة وبعدها واو ساكنة ثم خاء معجمة، وشاع: أخنوخ بهمزةٍ أوَّلَه، وهو إدريس[2] عليه السلام - بن يَرْد - بمثناة من تحت مفتوحة ثم راء ساكنة مهملة - ابن مهلائيل[3] بن قينان[4] بن أنوش[5] - بالنون والشين المعجمة - ابن شِيت[6] - بالتاء المثناة آخِرَه[7] - بن آدم عليه السلام، وهذا يدلُّ على أنه عليه السلام بعد إدريس عليه السلام.

وفي «المستدرك» أنَّ أكثر الصحابة ﷺ على أنَّه قبل إدريس[8]، وفيه عن ابن عباس: كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون[9]. وفيه أيضاً مرفوعاً: «بعث الله تعالى نوحاً لأربعين سنة، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستِّين سنة حتى كثر الناس وفشوا»[10].

وذكر ابنُ جرير[11] أنَّ مولده كان بعد وفاة آدم عليه السلام بمئة وستَّة وعشرين عاماً، وفي «التهذيب» للنووي[12] رحمه الله تعالى أنه أطول الأنبياء عليهم السلام عُمُراً. وقيل: إنَّه أطول الناس مطلقاً عمراً، فقد عاش - على ما قال شدَّاد - ألفاً

---

(١) جاء في هامش الأصل: وقيل: بالحاء المهملة.
(٢) جاء في هامش الأصل: رفعه الله تعالى إليه وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة. منه.
(٣) جاء في هامش الأصل: عاش تسع مئة وخمسة وستين. منه.
(٤) جاء في هامش الأصل: عاش سبع مئة وسبعين سنة.
(٥) جاء في هامش الأصل: عاش تسع مئة وستاً وستين سنة.
(٦) جاء في هامش الأصل: عاش تسع مئة وستاً وستين سنة. اهـ. ووقع في (م): شيث. بالثاء، وكذا في أكثر مصادر ترجمته.
(٧) قوله: بالتاء المثناة آخره. ليس في (م).
(٨) المستدرك ٢/ ٥٤٦.
(٩) المستدرك ٢/ ٥٤٦، وأخرجه أيضاً الطبري في التاريخ ١/ ١٧٨.
(١٠) المستدرك ٢/ ٥٤٦-٥٤٧.
(١١) في تاريخه ١/ ١٧٤.
(١٢) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٣٤.

وأربع مئة وثمانين سنة. ولم يُسمع عن أحد أنه عاش كذلك. يعني بالاتفاق؛ لئلا يَرِد الخَضِرُ عليه السلام، وقد يجاب بغير ذلك.

وهو على ما قيل: أوَّل مَن شُرعت له الشرائع وسُنَّت له السنن، وأوَّل رسول أنذر على الشرك وأُهلكت أمَّته. والحقُّ أنَّ آدم عليه السلام كان رسولاً قبله أُرسل إلى زوجته حوَّاء ثم إلى بَنِيْه، وكان في شريعته ما نسخ بشريعة نوح في قولٍ، وفي آخر: لم يكن في شريعته إلا الدعوة إلى الإيمان.

ويقال لنوح عليه السلام: شيخ المرسَلِين، وآدم الثاني. وكان دقيقَ الوجه في رأسه طولٌ، عظيم العينين، غليظ العَضُدين، كثير لحم الفخذين، ضخم السُّرَّة، طويل اللِّحية والقامة، جسيماً. واختلف في مكان قبره؛ فقيل: بمسجد الكوفة. وقيل: بالجبل الأحمر، وقيل: بذيلِ جبلِ لبنان بمدينة الكرك.

وفي إسناد الفعل إلى ضمير العظمة مع تأكيد الجملة ما لا يَخفى من الاعتناء بأمر إرساله عليه السلام.

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ قيل: هم سكان جزيرة العرب ومَن قَرُبَ منهم، لا أهل الأرض كافَّة؛ لاختصاص نبيِّنا ﷺ بعموم البعثة مِن بين المرسَلِين عليهم السلام، وما كان لنوح بعد قصَّة الغَرَق على القول بعمومه أَمْرٌ اتفاقي، واشتهر أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يسكن أرضَ الكوفة وهناك أُرسل.

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: أي أنذر قومك، على أنَّ «أنْ» تفسيريَّة؛ لِمَا في الإرسال من معنى القول دون حروفه، فلا محلَّ للجملة من الإعراب، أو: بأنْ أنذرهم، أي: بإنذارهم، أو: لإنذارهم، على أنَّ «أنْ» مصدريَّة وقبلها حرف جرٍّ مقدَّرٌ وهو الباء أو اللام، وفي المحلِّ بعد الحذف من الجرِّ والنصب قولان مشهوران، ونصَّ أبو حيَّان على جواز هذا الوجه في بحره هنا، ومنعه في موضع آخر[١].

وحَكَى المنعَ عنه ابنُ هشام في «المغني»[٢]، وقال: زعم أبو حيَّان أنَّها لا توصل

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٣٨ و١/ ٣٨١ على الترتيب.
(٢) مغني اللبيب ص٤٤-٤٥.

بالأمر، وأنَّ كلَّ شيء سمع من ذلك فـ «أنْ» فيه تفسيريَّة، واستدلَّ بدليلين:

أحدهما: أنَّهما إذا قُدِّرا بالمصدر فات معنى الأمر.

الثاني: أنهما لم يقعا فاعلاً ولا مفعولاً، لا يصحُّ: أعجبني أنْ قُمْ، ولا: كرهت أنْ قُمْ، كما يصحُّ ذلك مع الماضي والمضارع.

والجواب عن الأوَّل: أنَّ فوات معنى الأمريَّة عند التقدير بالمصدر كفوات معنى المُضِيِّ والاستقبال في الموصولة بالمضارع والماضي عند التقدير المذكور، ثم إنه يُسلِّم مصدريَّة المخفَّفة مع لزوم نحو ذلك فيها في نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنْ غَضِبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾[1] [النور: ٩] إذ لا يفهم الدعاء من المصدر إلا إذا كان مفعولاً مطلقاً نحو: سقياً ورعياً.

وعن الثاني: أنه إنَّما منع ما ذكره لأنَّه لا معنى لتعليق الإعجاب والكراهية بالإنشاء، لا لِمَا ذكره، ثم ينبغي له أنْ لا يُسلِّم مصدريَّة «كي»؛ لأنها لا تقع فاعلاً ولا مفعولاً، وإنَّما تقع مخفوضة بلام التعليل، ثم ممَّا يُقْطَعُ به على قوله بالبطلان حكاية سيبويه: كتبت إليه بأن قم. واحتمال زيادة الباء ـ كما يقول ـ وهمٌ فاحشٌ؛ لأنَّ حروف الجرِّ مطلقاً لا تدخل إلا على الاسم أو ما في تأويله. انتهى.

وأجاب بعضهم عن الأول أيضاً بأنَّه عند التقدير يقدَّر الأمر، فيقال فيما نحن فيه مثلاً: إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه بالأمر بإنذارهم. وتعقِّب بأنَّه ليس هناك فِعْلٌ يكون الأمرُ مصدرَه كـ : أَمَرْنا أو نأمُر، ثم إنه يكون المعنى في نحو: أمرته بأن قم: أمرته بالأمر بالقيام، وأشار الزمخشريُّ إلى جواب ذلك وهو أنَّه إذا لم يَسبق لفظ الأمر أو ما في معناه من نحو: رسمت، فلا بدَّ من تقدير القول، لئلا يبطل الطلب، فيقال هنا: أرسلناه بأن قلنا له: أنذر، أي: بالأمر بالإنذار[2]، وإذا سبقه ذلك لا يحتاج إلى[3] تقديره؛ لأن مآل العبارات ـ أعني: أمرته بالقيام، و: أمرته بأن قم، و: أن قم، بدون الباء، على أنَّها مفسِّرة ـ إلى واحد.

(١) وهي قراءة نافع كما سلف عند تفسير الآية، وينظر شرح الدماميني للمغني ١/ ٦٢.
(٢) الكشاف ٤/ ١٦١.
(٣) في (م): إلا.

وفي «الكشف»: لو قيل: إنَّ التقدير: وأرسلناه بالأمر بالإنذار، من دون إضمار القول؛ لأنَّ الأمريَّة ليست مدلولَ جوهر الكلمة بل من متعلَّق الأداة، فيقدَّر بالمصدر تبعاً، وفي أمر المخاطب اكتفي بالصيغة تحقيقاً، لكان حسناً، وهذا كما أنَّ التقدير في: أن لا يزنيَ خيرٌ له: عدم الزنى، فيقدَّر النفي بالمصدر على سبيل التبعيَّة، وأمَّا إذا صرّح بالأمر، فلا يحتاج إلى تقدير مصدر للطلب أيضاً، هذا ولو قدر: أمرته، بالأمر بالقيام، أي: بأنْ يأمر نفسَه به مبالغة في الطلب، لم يبعد عن الصواب، ولمَّا فُهم منه ما فُهم من الأوَّل وأبلغ، استُعمل استعماله من غير ملاحظة الأصل، وادَّعى بعضهم أنَّ تقديرَ القول هنا ليس لئلا يفوتَ معنى الطلب، بل لأنَّ الباء المحذوفة للملابسة، وإرسالُ نوح عليه السلام لم يكن ملتبساً بإنذاره لتأخُّره عنه، وإنما هو ملتبس بقول الله تعالى له عليه السلام: «أَنذر»، ولمَّا كان هذا القول منه تعالى لطلب الإنذار، قيل: المعنى: أرسلناه بالأمر بالإنذار، وكأنَّ هذا القائل لا يبالي بفوات معنى الطلب كما يقتضيه كلام ابنِ هشام المتقدِّم آنفاً.

وبحث الخفاجيُّ[1] فيما ذكروه من الفوات، فقال: كيف يفوت معنى الطلب وهو مذكور صريحاً في «أنذر» ونحوه؟ وتأويله بالمصدر المسبوك تأويل لا ينافيه؛ لأنَّه مفهوم[2] أخذوه من موارد استعماله، فكيف يبطل صريح منطوقه، فما ذكروه ممَّا لا وجهَ له وإن اتفقوا عليه، فاعرفه. انتهى.

وأقول: لعلَّهم أرادوا بفواتِ معنى الطلب فواتَه عند ذِكْر المصدر الحاصل من التأويل بالفعل، على معنى أنَّه إذا ذكر بالفعل لا يتحقَّق معنى الطلب، ولا يتَّحد الكلامان، ولم يريدوا أنَّه يفوت مطلقاً، كيف وتحقُّقه في المنطوق الصريح كنارٍ على عَلَم، ويؤيِّد هذا منعُهم بطلانَ اللازم المشار إليه بقول ابنِ هشام: إنَّ فوات معنى الأمريَّة عند التقدير بالمصدر كفوات المضيِّ والاستقبال.. إلخ، فكأنَّه قيل: لا نُسلِّم أنَّ هذا الفوات باطل، لم لا يجوز أن يكون كفوات معنى المضيِّ والاستقبال، وفوات معنى الدعاء في نحو: «أنْ غَضِبَ»، وقد أجمعوا أنَّ ذلك ليس

(١) حاشية الشهاب ٨/٢٤٨.
(٢) في الحاشية: لأنه مفهوم منه.

بباطل؛ لأنَّه فواتٌ عند الذكر بالفعل وليس بلازم، وليس بفواتٍ مطلقاً؛ لظهور أنَّ المنطوق الصريح متكفِّل به، فتدبَّر.

وقرأ ابن مسعود: «أنذر» بغير «أن»[1] على إرادة القول، أي: قائلين: أنذر.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ عاجل، وهو ما حلَّ بهم من الطوفان، كما قال الكلبيُّ، أو: آجل، وهو عذاب النار، كما قال ابن عباس، والمراد: أَنذرهم مِن قَبْل ذلك؛ لئلا يبقى لهم عذرٌ ما أصلاً.

﴿قَالَ﴾ استئناف بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فما فَعَلَ عليه الصلاة والسلام بعد هذا الإرسال؟ فقيل: قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ منذِر موضِح لحقيقة الأمر، واللام في «لكم» للتقوية أو للتعليل، أي: لأجل نفعكم من غير أن أسألكم أجراً.

وقوله تعالى ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ متعلِّق بـ «نذير» على مصدريَّة «أنْ» وتفسيريتها، ومرَّ نظيره في «الشعراء»[2].

وقوله سبحانه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ مجزوم في جواب الأمر، واختُلف في «من» فقيل: ابتدائيَّة، وإن لم تصلح هنا لمقارنة «إلى»، وابتداءُ الفعل من جانبه تعالى على معنى أنَّه سبحانه يبتدئهم بعد إيمانهم بمغفرة ذنوبهم إحساناً منه عزَّ وجلَّ وتفضُّلاً، وجوِّز أن يكون مِن جانبهم على معنى: أوَّل ما يحصل لهم بسبب إيمانهم مغفرةُ ذنوبهم، وليس بذاك.

وقيل: بيانيَّة، ورجوعها إلى معنى الابتدائيَّة استبعده الرضيُّ، ويقدَّر قبلها مبهم يفسَّر بمدخولها، أي: يغفر لكم أفعالكم التي هي الذنوب.

وقيل: زائدة على رأي الأخفش المجوِّز لزيادتها مطلقاً، وجزم بذلك هنا.

وقيل: تبعيضيَّة، أي: يغفر لكم بعضَ ذنوبكم. واختاره بعض.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٧، وتفسير الطبري ٢٣/ ٢٨٨، والكشاف ٤/ ١٦١.
(٢) عند قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨﴾ [الآية: ١٠٨].

واختُلف في البعض المغفور؛ فذهب قوم إلى أنَّه حقوق الله تعالى فقط السابقة على الإيمان، وآخرون إلى أنَّه ما اقترفوه قَبْلَ الإيمان مطلقاً؛ لظاهر ما ورد مِن أنَّ الإيمان يَجُبُّ ما قَبْلَه، واستشكل ذلك العزُّ بنُ عبد السلام في «الفوائد المنتشرة» وأجاب عنه. فقال: كيف يصحُّ هذا على رأي سيبويه الذي لا يرى كالأخفش زيادتها في الموجب، بل يقول: إنَّها للتبعيض، مع أنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قَبْلَه بحيث لا يبقى منه شيء؟ والجواب: إنَّ إضافة الذنوب إليهم إنَّما تصدق حقيقةً فيما وقع، إذ ما لم يقع لا يكون ذنباً لهم، وإضافة ما لم يقع على طريق التجوُّز كما في: ﴿وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] إذ المراد بها الأيمان المستقبَلَة، وإذا كانت الإضافة، تارة تكون حقيقة، وتارة تكون مجازاً، فسيبويه يجمع بين الحقيقة والمجاز فيها، وهو جائز، يعني عند أصحابه الشافعيَّة، ويكون المراد مِن بعض ذنوبكم البعضَ الذي وقع. انتهى.

ولا يَحتاج إلى حديث الجمع مَن خَصَّ الذنوبَ المغفورة بحقوق الله عزَّ وجلَّ، وهاهنا بحث وهو أن الحمل على التبعيض يأباه ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وقد نصَّ البعليُّ[1] في «شرح الجمل» على أنَّ ذلك هو الذي دعا الأخفش للجزم بالزيادة هنا، وجعله ابنُ الحاجب حجَّة له، وردَّه بعض الأجلَّة بأنَّ الموجبة الجزئيَّة من لوازم الموجبة الكليَّة، ولا تناقضَ بين اللازم والملزوم، ومبناه الغفلةُ عن كون مدلول «مِن» التبعيضيَّة هي البعضيَّة المجرَّدة عن الكليَّة المنافية لها لا الشاملة لِمَا في ضمنها المجتمعة معها، وإلَّا لَمَا تحقَّق الفرق بينها وبين «مِن» البيانيَّة من جهة الحكم، ولَمَا تيسَّر تمشية الخلاف بين الإمام أبي حنيفة وصاحبيه فيما إذا قال: طلِّقي نفسَك مِن ثلاثٍ ما شئتِ. بناءً على أنَّ «من» للتبعيض عنده، وللبيان عندهما، قال في «الهداية»: وإن قال لها: طلِّقي نفسَك مِن ثلاثٍ ما شئتِ. فلها أن تطلِّق نفسَها واحدة أو ثنتين، ولا تَطلُق ثلاثاً

(١) شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبي الفتح الحنبلي، شارح كتاب «الجمل في النحو» لعبد القاهر الجرجاني، وصاحب «المطلع على أبواب المقنع»، توفي سنة (٧٠٩هـ). كشف الظنون ١/ ٥٩٩، والأعلام ٦/ ٣٢٦.

عند أبي حنيفة، وقالا: تَطلُق ثلاثاً إن شاءت؛ لأنَّ كلمة «ما» محكمةٌ في التعميم، وكلمة «من» قد تستعمل للتمييز، فتحمل على تمييز الجنس، ولأبي حنيفة أنَّ كلمة «من» حقيقة في التبعيض و«ما» للتعميم، فيُعمل بهما[1]. انتهى. ولا خفاءَ في أنَّ بناء الجواب المذكور على كون «من» للتبعيض إنَّما يصحُّ إذا كان مدلولها حينئذٍ البعضيَّةَ المجردة المنافية للكليَّة، ومن هنا تعجب مِن صاحب «التوضيح» في تقرير الخلاف المذكور حيث استدلَّ على أولويَّة التبعيض بتيقُّنه، ولم يَدْرِ أنَّ البعض المراد قطعاً على تقدير البيان البعضُ العامُّ الشاملُ لِمَا في ضمن الكُلِّ، لا البعضُ المجرَّد المراد هاهنا، فبالتعليل على الوجه المذكور لا يتمُّ التقريب، بل لا انطباقَ بين التعليل والمعلّل على ما قيل، وصوّب العلّامة التفتازانيّ حيث قال فيما علَّقه على «التلويح» مستدلًّا على أن البعضيَّة التي تدلُّ عليها «من» التبعيضيَّة هي البعضيَّة المجرَّدة المنافية للكليَّة لا البعضيَّة التي هي أعمُّ من أن تكون في ضمن الكُلِّ أو بدونه: لاتِّفاق النحاة على ذلك حيث احتاجوا إلى التوفيق بين قوله تعالى: (يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ فقالوا: لا يبعد أن يغفر سبحانه الذنوبَ لقومٍ وبعضَها لآخرين، أو خطاب البعض لقومِ نوح عليه السلام، وخطاب الكُلِّ لهذه الأمَّة، ولم يذهب أحد إلى أنَّ التبعيضَ لا ينافي الكليَّة. ولم يصوّب الشريف في ردِّه عليه قائلاً: وفيه بحثٌ؛ إذ الرضيُّ صرَّح بعدم المنافاة بينهما حيث قال: ولو كان أيضاً خطاباً لأمَّة واحدة، فغفرانُ بعضِ الذنوب لا يناقض غفرانَ كلِّها بل عدم غفران بعضها يناقض غفرانَ كلِّها = لأنَّ قول الرضيِّ غيرُ مرتضًى؛ لِمَا عرفْتَ مِن أنَّ مدلول التبعيضيَّة البعضيَّةُ المجرَّدة.

واعترض قول النحاة: أو خطاب البعض لقوم نوح عليه السلام وخطاب الكُلِّ لهذه الأمَّة = بأنَّ الإخبار عن مغفرة البعض ورد في مواضع، منها قوله تعالى في سورة «إبراهيم»: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية: ١٠] ومنها في سورة «الأحقاف»: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية: ٣١] ومنها ما هنا وهو الذي ورد في قوم نوح عليه السلام، وأما ما ذكر في «الأحقاف»

(١) الهداية (مع فتح القدير) ٣/ ١٢٤-١٢٥.

فقد ورد في الجنِّ، وما ورد في «إبراهيم» فقد ورد في قوم نوح وعاد وثمود على ما أفصح به السياق، فكيف يصحُّ ما ذكروه؟

وقيل: جيء بـ «من» في خطاب الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن؛ تفرقةً بين الخطابين. ووجِّه بأنَّ المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفَّار مرتَّبةٌ على الإيمان، وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعةٌ بالطاعة والتجنُّب عن المعاصي ونحو ذلك، فتتناول الخروج عن المظالم.

واعترض بأنَّ التفرقةَ المذكورة إنَّما تتمُّ لو لم يجئ الخطاب للكفرة على العموم، وقد جاءت كذلك كما في سورة الأنفال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الآية: ٣٨]. وقد أسلفنا ما يتعلَّق بهذا المقام أيضاً، فتذكَّر وتأمَّل.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ هو الأمد الأقصى الذي قدَّره الله تعالى بشرط الإيمان والطاعة، وراءَ ما قدَّره عزَّ وجلَّ لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان، فإنَّ وصف الأجل بالمسمَّى وتعليق تأخيرهم إليه بالإيمان والطاعة صريح في أنَّ لهم أجلاً آخر لا يجاوزونه إن لم يؤمنوا، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما قدَّره عزَّ وجلَّ لكم على تقدير بقائكم على ما أنتم عليه ﴿إِذَا جَآءَ﴾ وأنتم على ما أنتم ﴿لَا يُؤَخَّرُۖ﴾ فبادِروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتى لا يتحقَّق شرطه الذي هو بقاؤكم على الكفر والعصيان، فلا يجيء ويتحقَّق شرط التأخير إلى الأجل المسمَّى فتؤخَّروا إليه. وجوِّز أن يُراد به وقتُ إتيان العذاب المذكور في قوله سبحانه: (مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فإنَّه أجل مؤقَّت له حتماً. وأيَّاما كان لا تناقضَ بين «يؤخركم» و«إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر» كما يتوهَّم.

وقال الزمخشري[1] في ذلك ما حاصله: إنَّ الأجل أجلان، و«أجل الله» حُكْمُه حكمُ المعهود، والمراد منه الأجل المسمَّى الذي هو آخِر الآجال، والجملة عنده

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ١٦١، وحاشية الشهاب ٨/ ٢٤٩.

تعليلٌ لِمَا فُهم من تعليقه سبحانه التأخير بالأجل المسمَّى وهو عدم تجاوز التأخير عنه. والأول هو المعوَّل عليه، فإنَّ الظاهر أنَّ الجملة تعليلٌ للأمر بالعبادة المستتبعة للمغفرة والتأخيرِ إلى الأجل المسمَّى، فلا بُدَّ أن يكون المنفي عند مجيء الأجل هو التأخير الموعود، فكيف يتصوَّر أن يكون ما فرِض مجيئه هو الأجل المسمَّى الذي هو آخِر الآجال؟

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ أي: لو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما آمركم به، لكنَّكم لستم مِن أهله في شيء، فلذا لم تُسارعوا، فجواب «لو» مما يتعلَّق بأوَّل الكلام، ويجوز أن يكون مما يتعلَّق بآخِره، أي: لو كنتم مِن أهل العلم لعلمتم ذلك، أي: عدم تأخير الأجل إذا جاء وقتُه المقدَّر له، والفعل في الوجهين منزَّل منزلةَ اللازم، ويجوز أن يكون محذوفاً؛ لقصد التعميم، أي: لو كنتم تعلمون شيئاً، ورجِّح الأوَّل بعدم احتياجه للتقدير. والجمعُ بين صيغتي الماضي والمضارع؛ للدلالة على استمرار النفي المفهوم مِن «لو»، وجعل العِلْم المنفي هو العلم النظري لا الضروري ولا ما يعمّه فإنَّه مما لا ينفى، اللَّهمَّ إلا على سبيل المبالغةِ.

﴿قَالَ﴾ أي: نوح عليه السلام مناجياً ربَّه عزَّ وجلَّ وحاكياً له سبحانه بقصد الشكوى ـ وهو سبحانه أعلم بحاله ـ ما جرى بينه وبين قومه مِن القيل والقال في تلك المدد الطوال بعد ما بذل في الدعوة غايةَ المجهود، وجاز في الإنذار كلَّ حدٍّ معهود، وضاقت عليه الحيل وعيَّت به العلل: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ أي: دائماً من غير فتور ولا توانٍ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ مما دعوتهم إليه، وإسناد الزيادة إلى الدعاء مِن باب الإسناد إلى السبب على حدِّ الإسناد في: سرَّتني رؤيتُك.

و«فراراً»، قيل: تمييز، وقيل: مفعول ثانٍ، بناءً على تعدِّي الزيادة والنقص إلى مفعولين، وقد قيل: إنَّه لم يثبت وإن ذكره بعضهم.

وفي الآية مبالغات بليغة، وكان الأصل: فلم يجيبوني، ونحوه، فعبَّر عن ذلك بزيادة الفرار المستندة للدعاء، وأوقعت عليهم مع الإتيان بالنفي والإثبات.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ أي: إلى الإيمان، فمتعلَّق الفعل محذوف، وجوّز جعله منزَّلاً منزلة اللازم، والجملة عطف على ما قبلها، وليس ذلك من عطف المفصَّل على المجمل كما توهّم حتى يقال: إنَّ الواو من الحكاية لا من المحكي.

﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: بسبب الإيمان ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: سَدُّوا مسامعهم عن استماع الدعوة، فهو كناية عمَّا ذكر، ولا منعَ من الحمل على الحقيقة، وفي نسبة الجعل إلى الأصابع وهو منسوبٌ إلى بعضها وإيثارِ الجعل على الإدخال ما لا يخفى ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: بالغوا في التغطِّي بها كأنَّهم طلبوا من ثيابهم أن تغشاهم؛ لئلَّا يَرَوْه، كراهةَ النظر إليه مِن فَرط كراهة الدعوة، ففي التعبير بصيغة الاستفعال ما لا يخفى مِن المبالغة، وكذا في تعميم آلة الإبصار وغيرها مِن البدن بالستر مبالغة في إظهار الكراهة، ففي الآية مبالغة بحسب الكيف والكمِّ.

وقيل: بالَغُوا في ذلك؛ لئلا يعرفَهم عليه السلام فيدعوهم. وفيه ضعف؛ فإنَّه قيل عليه: إنَّه يأباه ترتُّبه على قوله: «كلما دعوتهم»، اللهم إلا أن يجعل مجازاً عن إرادة الدعوة، وهو تعكيس للأمر وتخريب للنظم.

﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: أكبُّوا على الكفر والمعاصي وانهمكوا وجَدُّوا فيها، مستعار من: أصرَّ الحمارُ على العانة[1]: إذا صرَّ أذنيه ـ أي: رفعهما ونصبهما مستويَيْن ـ وأقبل عليها يكدمها[2] ويطردها، وفي ذلك غاية الذمِّ لهم، وعن جارِ الله: لو لم يكن في ارتكاب المعاصي إلا التشبيه بالحمار لكفى به مزجرة، كيف والتشبيه في أسوأ أحواله وهو حال الكَدْم والسِّفاد.

وما ذكر من الاستعارة قيل: في أصل اللغة، وقد صار الإصرار حقيقة عرفيَّة في الملازمة والانهماك في الأمر. وقال الراغب: الإصرار: التعقُّد في الذَّنْب والتشدُّد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله مِن: الصَّرِّ، أي: الشَّدِّ[3]. ولعلَّه لا يأبى ما تقدَّم بناء على أنَّ الأصل الأوَّل الشَّدُّ، والأصل الثاني ما سمعت أوَّلاً.

---

(١) العانة: جماعة الحمير الوحشية. فقه اللغة للثعالبي ص٢٠٤.
(٢) الكَدْم: العضُّ بأدنى الفم. «مختار الصحاح» (كدم).
(٣) المفردات (صر).

﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ من اتِّباعي وطاعتي ﴿اسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ عظيماً، وقيل: نوعاً من الاستكبار غير معهود، والاستكبار: طلب الكِبْر مِن غير استحقاق له.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ أي: دعوتهم مرَّة بعد مرَّة، وكرَّة غبَّ كرَّة، على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة، وهو تعميم لوجوه الدعوة بعد تعميم الأوقات، وقوله: «ثم إني دعوتهم جهاراً» يشعر بمسبوقيَّة الجهر بالسِّرِّ وهو الأليق بمَن همُّه الإجابة؛ لأنَّه أقرب إليها؛ لما فيه من اللطف بالمدعوِّ، فـ «ثم» لتفاوت الوجوه، وإن الجهار أشدُّ من الإسرار، والجمع بينهما أغلظ من الإفراد.

وقال بعض الأجلَّة: ليس في النظم الجليل ما يقتضي أنَّ الدعوة الأولى كانت سرًّا فقط، فكأنه أُخِذَ ذلك من المقابلة ومِن تقديم قوله: «ليلاً»، وذكرِهم بعنوان قومه، وقولِه: «فراراً» فإنَّ القرب ملائم له.

وجوّز كون «ثم» على معناها الحقيقي، وهو التراخي الزماني، لكنه باعتبار مبدأ كلٍّ من الإسرار والجِهار ومنتهاه، وباعتبار منتهى الجمع بينهما؛ لئلا ينافي عموم الأوقات السابق، ويحسن اعتبار ذلك، وإن اعتبر عمومها عرفيًّا كما في: لا يضع العصا عن عاتقه.

و«جهاراً» منصوب بـ «دَعَوْتُهم» على المصدريَّة؛ لأنَّه أحد نوعي الدعاء، كما نصب القرفصاء في: قعدتُ القرفصاءَ عليها؛ لأنَّها أحدُ أنواع القعود، أو أريد بـ «دعوتهم»: جاهرتهم. أو: صفة لمصدر محذوف، أي: دعوتهم دعاءً جِهاراً، أي: مجاهَراً ـ بفتح الهاء ـ به، أو: مصدر في موقع الحال، أي: مجاهِراً، بزنة اسم الفاعل.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر والمعاصي، فإنَّه سبحانه لا يغفر أن يشرك به، وقال: «ربّكم»، تحريكاً لداعي الاستغفار ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ دائم المغفرة، كثيرها للتائبين، كأنهم تعلَّلوا وقالوا: إنْ كنَّا على الحقِّ فكيف نتركه، وإن كنَّا على الباطل فكيف يَقْبلنا ويلطف بنا جلَّ وعلا بعد ما عكفنا عليه دهراً طويلاً؟! فأمرهم بما يَمحقُ ما سلف منهم مِن المعاصي ويجلب إليهم المنافع، ولذلك

وعدهم على الاستغفار بأمور هي أحبُّ إليهم وأوقع في قلوبهم من الأمور الأخروية، أعني ما تضمَّنه: «يرسل السماء» إلخ، وأَحبِّيَّتهم لذلك؛ لِمَا جبلوا عليه من محبَّة الأمور الدنيويَّة:

والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجلِ[1]

قال قتادة: كانوا أهلَ حبٍّ للدنيا، فاستدعاهم إلى الآخرة مِن الطريق التي يحبُّونها. وقيل: لمَّا كذَّبوه عليه الصلاة والسلام بعد تكرير الدعوة حبس الله تعالى عنهم القَطْر، وأعقمَ أرحام نسائهم أربعين سنة، وقيل: سبعين سنة، فوعدهم أنهم إن آمنوا يرزقهم الله تعالى الخِصْبَ، ويدفع عنهم ما هم فيه، وهو قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪﴾ أي: كثير الدُّرُور، أي: السيلان، و«السماء»: السحاب أو المطر، ومن إطلاقها على المطر وكذا على النبات أيضاً قولُه:

إذا نزل السماءُ بأرض قومٍ   رعيناه وإن كانوا غضاباً[2]

وجوِّز أن يراد بها المُظِلَّة على ما سمعت غيرَ مرَّة، وهي تذكَّر وتؤنَّث، ولا يأبى تأنيثها وصفها بـ «مدراراً»، وأنَّ صيغ المبالغة كلَّها ـ كما صرَّح به سيبويه ـ يشترك فيها المذكَّر والمؤنَّث. وفي «البحر»[3]: إنَّ مفعالاً لا تلحقه التاء إلا نادراً.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ أي: بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها أو مطلقاً ﴿أَنْهَـٰرًا ⑫﴾ جارية، وأعاد فِعْلَ الجعل دون أن يقول: يجعل لكم جنات وأنهاراً؛ لتغايرهما، فإنَّ الأوَّل ممَّا لفعلهم مدخل فيه بخلاف الثاني، ولذا قال: «يمددكم بأموال وبنين» ولم يُعِدِ العامل، كذا قيل، وهو كما ترى.

ولعلَّ الأولى أن يقال: إنَّ الإعادة للاعتناء بأمر الأنهار، لِمَا أنَّ لها مدخلاً عاديّاً أكثريّاً في وجود الجنَّات وفي بقائها مع منافعَ أُخَرَ لا تخفى، ورعاية لمدخليتها في بقائها الذي هو أهمُّ مِن أصل وجودها مع قوَّة هذه المدخليَّة أُخِّرت

(١) عجز بيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٧٣٧، وصدره:
إنـي لآمـل مـنـك خـيـراً عـاجـلاً
(٢) سلف ١١/ ٥٠٨.
(٣) ٨/ ٣٣٩.

عنها، وأن ترك إعادة العامل مع البنين؛ لأنَّه الأصل، أو لأنه لمَّا كان الإمداد أكثرَ ما جاء في المحبوب، ولا تكمل محبوبيَّة كلٍّ من الأموال والبنين بدون الآخر، ترك إعادة العامل بينهما؛ للإشارة إلى أنَّ التفضُّل بكلٍّ غير منغِّص بفقد الآخر، وتأخير البنين، قيل: لأنَّ بقاء الأموال غالباً بهم لا سيما عند أهل البادية، مع رمز إلى أنَّ الأموال تصل إليهم آخِرَ الأمر، وهو مما يسرُّ المتموِّل كما لا يخفى، فتأمَّل.

وقال البقاعيُّ: المراد بالجنَّات والأنهار ما في الآخرة[1]. والجمهور على الأوَّل.

وروي عن الربيع بنِ صبيح أنَّ رجلاً أتى الحسن وشكا إليه الجَدْبَ، فقال له: استغفر الله تعالى. وأتاه آخر فشكا إليه الفقرَ، فقال له: استغفرِ الله تعالى. وأتاه آخر، فقال: ادع الله سبحانه أن يرزقني ابناً. فقال له: استغفر الله تعالى. وأتاه آخر فشكا إليه جفافَ بساتينه، فقال له: استغفر الله تعالى. فقلنا: أتاك رجال يشكونَ ألواناً ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلَّهم بالاستغفار؟ فقال: ما قلتُ مِن نفسي شيئاً إنَّما اعتبرتُ قولَ الله عزَّ وجلَّ حكايةً عن نبيِّه نوح عليه الصلاة والسلام أنَّه قال لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الآية.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ إنكار لأن يكون لهم سببٌ مّا في عدم رجائهم لله تعالى وقاراً، على أنَّ الرجاء بمعنى الخوف، كما أخرجه الطستي عن ابنِ عباس مجيباً به سؤالَ نافع بنِ الأزرق منشداً قولَ أبي ذؤيب:

إذا لَسَعتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها ... وحالفها في بيتِ نُوب عواسِلِ[2]

أو على أنَّه بمعنى الاعتقاد، كما أخرجه عنه ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ وجماعة[3]، وعبَّر به بالرجاء التابع لأدنى الظَّنِّ مبالغةً، و«لا ترجون» حال من ضمير المخاطبين، والعامل فيها معنى الاستقرار في «لكم» على أنَّ الإنكار متوجِّه

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥١، وفي نظم الدرر للبقاعي ٢٠/ ٤٣٨. «ويجعل لكم» أي: في الدارين.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٦٨، والبيت سلف ١١/ ٣٨.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٦٨، والعظمة لأبي الشيخ (٧٥)، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٣/ ٢٩٥.

إلى السبب فقط مع تحقُّق مضمون الجملة الحاليَّة، لا إليهما معاً، و«لله» متعلِّق بمضمر وقع حالاً من «وقاراً»، ولو تأخَّر لكان صفة له.

والوقار كما رواه جماعة عن الحبر بمعنى العظمة؛ لأنَّه على ما نقل الخفاجيُّ عن «الانتصاف»(١) وَرَدَ في صفاته تعالى بهذا المعنى ابتداءً، أو لأنَّه بمعنى التؤدة، لكنها غيرُ مناسبة له سبحانه فأطلقت باعتبار غايتها وما يتسبَّب عنها من العظمة في نفس الأمر، أو في نفوس الناس، أي: أيّ سبب حصل لكم حالَ كونكم غير خائفين أو غير معتقدين لله تعالى عظمةً موجبة لتعظيمه سبحانه بالإيمان به جلَّ شأنه والطاعة له تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ أي: والحال أنَّكم على حال منافية لما أنتم عليه بالكليَّة وهو أنَّكم تعلمون أنَّه عزَّ وجلَّ خلقكم مدرجاً لكم في حالات: عناصر ثم أغذية ثم أخلاطاً ثم نُطَفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم خَلْقاً آخر، فإنَّ التقصير في توقير مَن هذا شأنه في القدرة القاهرة والإحسان التامِّ مع العلم بذلك مما لا يكاد يصدر عن العاقل، فالجملة حال من فاعل «لا ترجون» مقرِّرة للإنكار، والأطوار: الأحوال المختلفة، وأنشدوا قوله:

فـإن أفـاقَ فـقـد طـارت عَـمـايَـتُـه والـمـرء يُـخْـلَـقُ طوراً بـعـد أطـوار(٢)

وحَمْلُها على ما سمعت من الأحوال مما ذهب إليه جمع، وعن ابنِ عباس ومجاهد ما يقتضيه، وإن اقتصرا على ذكر النطفة والعَلَقة والمضغة، وقيل: المراد بها الأحوال المختلفة بعد الولادة إلى الموت من الصِّبا والشباب والكهولة والشيوخة والقوَّة والضعف. وقيل: من الألوان والهيئات والأخلاق والمِلل المختلفة. وقيل: من الصِّحَّة والسقم، وكمال الأعضاء ونقصانها، والغنى والفقر، ونحوها.

هذا، وقيل: الرجاء بمعنى الأمل كما هو الأصل المعروف فيه، والوقار بمعنى التوقير كالسلام بمعنى التسليم، وأريد به التعظيم، و«لله» بيان للموقَّر المعظَّم، فهو خبر مبتدأ محذوف، أي: إرادتي لله، أو متعلِّق بمحذوف يفسِّره المذكور، أي:

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥١، والانتصاف ٤/ ١٦٣.
(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٤٩، والعَماية: الضلالة.

وقاراً لله، ولم يعلّق بالمذكور بناء على ما صحّح ـ على ما فيه ـ من أنَّ معمولَ المصدر مطلقاً لا يتقدَّم عليه، ولو تأخَّر لكان صلة له، على ما في «الكشاف»(١) وفيه: أنَّ المعنى: ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيمَ الله تعالى إياكم في دار الثواب. وحاصله: ما لكم لا ترجون أن تُوقَّروا وتُعظَّموا، على البناء للمفعول، فكأنه قيل: لِمَن التوقير؟ أي: مَن الذي يعظِّمنا ويختصّ به إعظامه إيَّانا؟ فقيل: لله، وفسَّره بقوله: على حال.. إلخ، إشارة إلى أنَّه ينعي عليهم اغترارَهم، كأنَّه قيل: ما لكم مغترِّين غير راجين. وجعل الحثّ على الرجاء كناية عن الحثِّ على الإيمان والعمل الصالح؛ لاقتضائه انعقاد الأسباب، بخلاف الغرور، وهي كناية إيمائيَّة إذ لا واسطة، ولو جعلت رمزيَّة ـ لخفاء الفَرْق بين الرجاء والغرور على الأكثر ـ لكان وجهاً، قاله في «الكشف».

وتعقَّب ذلك مفتي الديار الروميَّة ـ عليه الرحمة ـ بأنَّ عدم رجاء الكفرة لتعظيم الله تعالى إياهم في دار الثواب ليس في حيِّز الاستبعاد والإنكار، مع أنَّ في جعل الوقار بمعنى التوقير من التعسُّف، وفي جعل «لله» بياناً للموقّر ودعوى أنَّه لو تأخَّر لكان صلة للوقار من التناقض ما لا يخفى، فإنَّ كونه بياناً للموقّر يقتضي أن يكون التوقير صادراً عنه تعالى، والوقار وصفاً للمخاطبين، وكونه صلة للوقار يوجب كون التوقير صادراً عنهم والوقار وصفاً له عزَّ وجلَّ(٢). انتهى.

وأجيب عن أمر التناقض بأنَّك إذا قلت: ضَرْبٌ لزيد، جاز أن يكون زيد فاعلاً وأن يكون مفعولاً، وكفى شاهداً صحَّة الإضافتين، فعند التأخُّر يحتمل أن يكون الوقار بمعنى التوقير صادراً منه تعالى، فيكون الوقار وصفاً للمخاطبين، ويحتمل أن يكون متعلِّقاً به فيكون التوقير صادراً عنهم والوقار وصفاً له تعالى، غاية ما في الباب أنَّه لما قدَّم «لله» وامتنع تعلُّقه بالمصدر المتأخِّر صار بياناً، وعيَّنت القرينة إرادة صدور التوقير عنه عزَّ وجلَّ، وأين هذا من التناقض؟ نعم يبقى الكلام في القرينة، ولعلَّها السياق بناء على أنَّ القوم استبعدوا أن يُقبلوا ويَلطف الله تعالى بهم

---

(١) ٤/ ١٦٣.

(٢) تفسير أبي السعود ٩/ ٣٨-٣٩.

إن هم تركوا باطلهم، فيكون هذا من تتمَّة إزالة الشبهة فيما سمعت مِن قولهم: كيف يَقبلُنا ويلطف بنا.. إلخ، ويعلم مِن هذا الجوابُ عن قوله: إنَّ عدم رجاء الكفرة لتعظيم الله تعالى ليس في حَيِّز الاستبعاد، كما لا يخفى، وعليه قيل: يكون قوله تعالى: «وقد خلقكم» إلى قوله سبحانه: «فجاجاً» للدلالة على أنَّه جلَّ شانه لا يزال ينعم عليكم مع كفركم فكيف لا يلطف بكم ويوقِّركم إذا آمنتم، وتفسَّر الأطوار بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة كالصبا والشباب والكهولة وغيرها مما يكون بعضه في حال الكفر ويصلح لأن يمتنّ به، ويُلتزم كون الإعادة في الأرض من النِّعَم عندهم بناء على أنَّ فيها سترَ فظاعة الأبدان على أسهل وجه بعد حلول الموت الضروري في هذه النشأة.

والإنصاف بعد هذا كلِّه ـ تمَّ أم لم يتمَّ ـ أنَّ الوجه المذكور متكلَّف بعيدٌ عن الظاهر بمراحل.

وقيل: المعنى: ما لكم لا تخافون لله تعالى حِلْماً وتَرْكَ معاجَلَةٍ بالعقاب فتؤمنوا، فالرجاء بمعنى الخوف، والوقار بمعنى الحلم، حقيقةٌ كما هو ظاهر كلام الراغب[1]، أو استعارة له؛ لاشتراكهما في التأنِّي، أو مجاز إذ لا يتخلَّف الحلم عن الوقار عادةً، وفي رواية عن ابن عباس تفسيره بالعاقبة حيث قال: أي: لا تخافون لله عاقبة، وهو من الكناية حينئذٍ أخذاً من الوقار بمعنى الثبات، وعن مجاهد والضحَّاك أنَّ المعنى: ما لكم لا تبالون لله تعالى عظمة. قال قطرب: هذه لغة أهل الحجاز وهذيل وخزاعة ومضر، يقولون: لم أَرْج، أي: لم أُبالِ. وأَظْهَرُ المعاني ما ذكرناه أوَّلاً.

ولمَّا ذكر من آيات الأنفس ما ذكر أتبعه بشيء من آيات الآفاق، ولبُعد أحد الأمرين عن الآخر رتبةً لم يأتِ بالعطف، بل قطع فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ أي: متطابقةً بعضُها فوق بعض، وتفسير التطابق بالتوافق في الحسن والاشتمال على الحِكَم وجودة الصنع ما تَرى في خَلْق الرحمن مِن تفاوتٍ عدولٌ عن الظاهر الذي تطابقت عليه الأخبار مِن غير داعٍ إليه.

---

(١) المفردات (وقر).

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ منوِّراً لوجه الأرض في ظلمة الليل، وجعله فيهنَّ مع أنَّه في إحداهنَّ وهي السماء الدنيا، كما يقال: زيد في بغداد، وهو في بقعة منها، والمرجِّح له الإيجاز والملابسة بالكليَّة والجزئيَّة، وكونها طباقاً شفافةً.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ يزيل ظلمةَ الليل، ويبصر أهلُ الدنيا في ضوئها وجهَ الأرض ويشاهدون الآفاق كما يبصر أهلُ البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره، وتنوينُه للتعظيم، وفي الكلام تشبيه بليغ، ولكون السراج أعرف وأقرب جعل مشبَّهاً به، ولاعتبار التعدِّي إلى الغير في مفهومه بخلاف النور كان أبلغَ منه، ولعلَّ في تشبيهها بالسراج القائم ضياؤه به[1] لا بطريق الانعكاس رمزاً إلى أنَّ ضياءَها ليس منعكساً إليها مِن كوكب آخر، كما أنَّ نور القمر منعكس عليه من الشمس؛ لاختلاف تشكُّلاته بالقُرب والبُعد منها، مع خسوفه بحيلولة الأرض بينه وبينها، وجزم أهل الهيئة القديمة بذلك، وفي رواية ـ لا أظنُّها تصحُّ ـ أنَّ ضياء الشمس مفاضٌ عليها من العرش، وأظنُّ أنَّ مَن يقول: إنَّها تدور على كوكب آخر ـ مِن أهل الهيئة الجديدة ـ يقول باستفادتها النورَ مِن غيرها.

ثم الظاهر أنَّ المراد: وجَعَل الشمس فيهنَّ، فقيل: هي في السماء الدنيا في فلك في ثخنها، وقيل: في السماء الرابعة، وهو المشهور عند متقدِّمي أهل الهيئة، واستدلُّوا عليه بما هو مذكور في كتبهم، وفي «البحر»[2] حكاية قول: إنَّها في الخامسة، ولا يكادُ يصحُّ. ومما يُضحِك الصبيان فضلاً عن فحول ذوي العرفان ما حكي فيه أيضاً أنَّها في الشتاء في الرابعة، وفي الصيف في السابعة.

وذهب متأخِّرو أهل الهيئة إلى أنَّها مركز للسيارات وعدُّوا الأرضَ منها، ولم يعدُّوا القمرَ؛ لدورانه على الأرض، وهو بينها وبين الشمس عندهم، وسنعمل إن شاء الله تعالى رسالةً في تحقيق الحقِّ، والحقُّ عند ذَوِيْه أظهر من الشمس.

---

(١) قوله: به، ساقط من (م).
(٢) ٨/ ٣٤٠.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ أي: أنشأكم منها، فاستُعير الإنبات للإنشاء؛ لكونه أدلَّ على الحدوث والتكوُّن مِن الأرض، لكونه محسوساً وقد تكرَّر إحساسه، وهم وإن لم ينكروا الحدوثَ جُعلوا بإنكار البعث كمَن أنكره، ففي الكلام استعارة مصرّحة تبعيَّة.

و«من» ابتدائيَّة داخلة على المبدأ البعيد، و«نباتاً» قال أبو حيان[1] وجماعة: مصدر مؤكِّد لـ «أنبتكم» بحذف الزوائد، والأصل إنباتاً، أو نصب بإضمار فعل، أي: فنبتُّم نباتاً، وفي «الكشف»: إنَّ الإنبات والنبات من الفعل والانفعال، وهما واحد في الحقيقة، والاختلاف بالنسبة إلى القيام بالفاعل والقابل، فلا حاجةَ إلى تضمين فعل آخر ولا تقديره، ثم إنَّ الإنبات إنْ حُمل على معناه الوضعي فلا احتياج إلى التقدير، إذ هو في نفسه متضمِّن للنبات، كما أشرنا إليه، فيكون «نباتاً» نصباً بـ «أنبتكم» لهذا التضمُّن، وإن حُمل على المتعارف مِن إطلاقه على مقدَّمة الإنبات من إخفاء الحَبِّ في الأرض مثلاً، فالوجه الحمل على أنَّ المراد: أنبتكم فنبتم نباتاً؛ ليكون فيه إشعار بنحو النكتة التي جرت في قوله تعالى: ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠] من الدلالة على القدرة وسرعة نفاذِ حكمها.

وجوّز أن يكون الأصل: أنبتكم من الأرض إنباتاً، فنبتُّم نباتاً، فحذف من الجملة الأولى المصدر ومن الثانية الفعل؛ اكتفاءً بما ذكر في الأخرى، على أنَّه مِن الاحتباك، وقال القاضي: اختُصِرَ اكتفاءً بالدلالة الالتزامية. وفيه على ما قال الخفاجيُّ الإشعار المذكور[2]، فتأمَّل.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأرض بالدَّفْن عند موتكم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ محقَّقاً لا ريبَ فيه، وعطف «يعيدكم» بـ «ثم» لما بين الإنشاء والإعادة من الزمان المتراخي الواقع فيه التكليف الذي به استحقُّوا الجزاءَ بعد الإعادة، وعطف «يخرجكم» بالواو دون «ثم» مع أنَّ الإخراج كذلك؛ لأنَّ أحوال البرزخ والآخرة في حكم شيء واحد، فكأنه قضية واحدة ولا يجوز أن

(١) البحر ٨/ ٣٤٠.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٢، وبهامشه تفسير القاضي البيضاوي.

يكون بعضها محقَّقَ الوقوع دون بعض، بل لا بُدَّ أن تقع الجملة لا محالةَ وإن تأخَّرت عن الإبداء.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ تتقلَّبون عليها كالبساط، وليس فيه دلالة على أنَّ الأرضَ مبسوطةٌ غيرُ كريَّة كما في «البحر»[١] وغيره؛ لأنَّ الكرة العظيمةَ يَرى كلُّ مَن عليها ما يليه مسطَّحاً. ثم إنَّ اعتقاد الكريَّة أو عدمها ليس بأمر لازم في الشريعة، لكنَّ كريتها كالأمر اليقيني وإن لم تكن حقيقية، ووجه توسيط «لكم» بين الجعل ومفعوله الصريح يُعلم ممَّا مرَّ غيرَ مرَّة..

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿فِجَاجًا ۝٢٠﴾ واسعات، جمع: فجٍّ، فهو صفة مشبَّهة نعت لـ «سبلاً»، وقال غير واحد: هو اسم للطريق الواسعة. وقيل: اسم للمسلَك بين الجبلين، فيكون بدلاً أو عطفَ بيان. و«من» متعلِّقة بما قبلها لتضمُّنه معنى الاتِّخاذ، وإلا فهو يتعدَّى بـ «في»، أو بمضمر هو حال من سبلاً، أي: سبلاً كائنة مِن الأرض، ولو تأخَّر لكان صفة لها.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربِّه عزَّ وجلَّ، أي: قال عليه السلام مناجياً له تعالى شاكياً إليه عزَّ وجلَّ: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ أي: داموا على عصياني فيما أَمرتهم به مع ما بالغت في إرشادهم بالعظة والتذكير ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾ أي: واستمرُّوا على اتِّباع رؤسائهم الذين أَبطرتهم أموالهم وغرَّتهم أولادهم، وصار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة، فصاروا أُسوةً لهم في الخسار، والظاهر أنَّ اتِّباع عامَّتهم وسفلتهم لأولئك الرؤساء وفي وصفهم بذلك إشعار بأنَّهم اتَّبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد، لا لِمَا شاهدوا فيهم مِن شبهة مصحِّحَة للاتِّباع في الجملة.

وقرأ ابن الزبير والحسن والنخعي والأعرج ومجاهد والأخوان وابن كثير وأبو عمرو ونافع في رواية خارجة عنه: «وَوُلْدُهُ» بضمِّ الواو وسكون اللام[٢]،

---

(١) ٨/ ٣٤٠.

(٢) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩١ عن الأخوين وابن كثير وأبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٣٤١، وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥.

فقيل: هو مفردٌ لغةٌ في وَلَد ـ بفتحهما ـ كالحَزَن والحُزْن، وقيل: جمع له كالأَسَد والأُسْد. وفي «القاموس»[1]: الوَلَد محرَّكة، وبالضمِّ والكسر والفتح: واحدٌ وجمعٌ، وقد يُجمَع على أولاد ووِلْدَة وإِلْدَة ـ بكسرها ـ ووُلْد بالضمِّ. انتهى.

وقرأ بالكسر والسكون الحسن أيضاً والجحدري وقتادة وذرٌّ وطلحة وابن أبي إسحاق وأبو عمرو في رواية[2].

﴿وَمَكَرُواْ﴾ عطف على صلةِ «مَن»، والجمع باعتبار معناها كما أنَّ الإفراد في الضمائر الأُوَل باعتبار لفظها، وكأنَّ فيه إشارة إلى اجتماعهم في المكر ليكون أشدَّ وأعظم. وقيل: عطف على «عَصَوْني»، والأوَّل أنسب؛ لدلالته على أنَّ المتبوعين ضَمُّوا إلى الضلال الإضلالَ، وهو الأوفق بالسياق، فإنَّ المتبادر أنَّ ما بعده من صفة الرؤساء أيضاً، واعتبارُ ذلك العطف على أنَّ المعنى: مكر بعضهم ببعض، وقال بعضهم لبعض، خلافُ المتبادر.

﴿مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: كبيراً في الغاية، فهو من صيغ المبالغة، قال عيسى بنُ عمر: هي لغة يمانية، وعليها قول الشاعر:

بيضاء تصطادُ القلوبَ وتَستبي ... بالحُسْن قَلْبَ المسلم القُرَّاءِ

وقوله:

والمرءُ يُلْحِقُه بفِتْيانِ النَّدى ... خُلُقُ الكريمِ وليس بالوُضَّاءِ[3]

---

(١) مادة (ولد).

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٢، والكشاف ٤/ ١٦٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٤١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٤١، والبيتان من قصيدة واحدة أنشدها أبو صدقة الدُّبَيْري للفراء كما ذكر ذلك ابن السكيت في إصلاح المنطق ص١٢٣-١٢٤، وكذا عزاه لأبي صدقة الجوهريُّ في الصحاح (قرأ) و(وضأ)، والتوحيدي في البصائر والذخائر ٨/ ٦٣-٦٤ (وعبارته فيه: قال الفراء في النوادر: وأنشدني أبو صدقة الزهري لفلان)، وابن منظور في اللسان (وضأ)، والزبيدي في تاج العروس (قرأ) و(وضأ).
في حين نسبها السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٢٧٨ ليزيد بن تركي، وسماه في اللسان (قرأ): زيد بن تركي الزبيدي، وفي تاج العروس (قرأ): زيد بن ترك الدُّبَيْري، وقال: هو الصحيح. اهـ. وسماه الصغاني في العباب الزاخر (قرأ): زيد بن تركي أخو يزيد.

وقد سمع بعضُ الأعراب الجفاة رسولَ الله ﷺ يقرأ هذه الآية، فقال: ما أفصح ربَّك يا محمَّد[١]!

وإذا اعتبر التنوين في «مكراً» للتفخيم زاد أمر المبالغةِ في مكرهم، أي: كبيراً في الغاية، وذلك احتيالهم في الدين وصدُّهم للناس عنه، وإغراؤهم وتحريضهم على أذيَّة نوح عليه السلام.

وقرأ عيسى وابن محيصن وأبو السَّمَّال: «كُبَاراً» بتخفيف الباء[٢]، وهو بناءُ مبالغةٍ أيضاً إلا أنَّها دون المبالغة في المشدَّد، ومثل كُبَّار في ذلك[٣] حُسَّان وطُوَّال وعُجَّاب وجُمَّال، إلى ألفاظ كثيرة.

وقرأ زيد بن عليٍّ وابن محيصن فيما روى عنه وهب بن واضح: «كِباراً» بكسر الكاف وفتح الباء[٤]، قال ابن الأنباري: هو جمعُ كبير، كأنَّه جعل «مكراً» مكان ذنوب أو أفاعيل، يعني فلذلك وصف بالجمع.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا عبادتها على الإطلاق إلى عبادة ربِّ نوح عليه السلام ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: ولا تتركوا عبادة هؤلاء، خصُّوها بالذكر مع اندراجها فيما سبق؛ لأنَّها كانت أكبرَ أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة وأعظمَها عندهم، وإن كانت متفاوتةً في العِظَم فيما بينها بزعمهم، كما يُومئ إليه إعادة «لا» مع بعضٍ وتَرْكُها مع آخر.

وقيل: أفرد يَعُوق ونَسْر عن النفي؛ لكثرة تكرار «لا» وعدم اللبس.

وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب؛ أخرج البخاريُّ وابنُ المنذر وابنُ مردويه عن ابنِ عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح عليه السلام في العرب بَعْدُ: أمَّا وَدٌّ فكانت لكلب بدومة الجَنْدل، وأمَّا سُوَاع فكانت لهذيل[٥]، وأمَّا يَغُوث

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤١.

(٣) أي: في مجيئه بالتخفيف والتشديد.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر ٨/ ٣٤١، والكلام وما بعده منه.

(٥) في هامش الأصل: وقيل: لهمذان. انتهى منه.

فكانت لمراد[١]، ثم لبني غُطَيْف عند سبأ، وأمَّا يَعُوق فكانت لهَمْدان[٢]، وأما نَسْر فكانت لحِمْيَر لآل ذي الكَلاع، وكانت هذه الأسماءُ أسماءَ رجال صالحين مِن قوم نوح، فلمَّا هَلَكوا أوحى الشيطانُ إليهم أنِ انْصِبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك ودَرَس العِلْم عُبِدَت[٣].

وأخرج أبو الشيخ في «العظمة» عن محمد بنِ كعب القرظي أنَّه قال: كان لآدمَ عليه السلام خمسة بنين: وَدٌّ، وسُواع.. إلخ، فكانوا عُبَّاداً، فمات رجل منهم فحزنوا عليه حزناً شديداً، فجاءهم الشيطانُ فقال: حزنتم على صاحبكم هذا؟ قالوا: نعم. قال: هل لكم أن أصوِّر لكم مِثْلَه في قِبْلَتِكم، إذا نظرتم إليه ذكرتموه؟ قالوا: [لا]، نكره أن تجعل لنا في قِبْلَتنا شيئاً نُصلِّي إليه[٤]. قال: فأجعله في مؤخَّر المسجد؟ قالوا: نعم. فصوَّره لهم حتى مات خمستُهم، فصوَّر صورهم في مؤخَّر المسجد، فنقَصت الأشياء حتى تركوا عبادةَ الله تعالى وعبدوا هؤلاء، فبعث الله تعالى نوحاً عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده وتَرْكِ عبادتها، فقالوا ما قالوا[٥].

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن عروة بنِ الزبير أنَّ وَدّاً كان أكبرَهم وأبرَّهم، وكانوا كلُّهم أبناءَ آدمَ عليه السلام[٦].

وروي أنَّ وَدّاً أوَّلُ معبود مِن دون الله سبحانه وتعالى؛ أخرج عبد بن حميد عن أبي مطهر قال: ذكروا عند أبي جعفر رضي الله عنه يزيد بنَ المهلَّب، فقال: أَمَا إنَّه قُتلَ في أوَّل أرض عُبد فيها غيرُ الله تعالى، ثم ذكر ودّاً وقال: كان رجلاً مسلماً وكان محبَّباً

---

(١) في هامش الأصل: وقيل: مراده. انتهى منه.
(٢) في هامش الأصل: وقيل: لمذحج. انتهى منه.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩، والبخاري (٤٩٢٠).
(٤) في الأصل و(م): عليه. والمثبت من مصدر التخريج.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٦٩، والعظمة (١٠٦٩)، وما بين حاصرتين منهما.
(٦) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩ بنحوه.

في قومه، فلمَّا مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجَزِعوا عليه، فلما رأى إبليسُ جزعَهم تَشَبَّه في صورة إنسان ثم قال: أرى جزعَكم على هذا، فهل لكم أن أصوِّر لكم مِثْلَه فيكون في ناديكم فتذكرونه به؟ قالوا: نعم. فصوَّر لهم مِثْلَه، فوضعوه في ناديهم فجعلوا يذكرونه به، فلما رأى ما بهم مِن ذِكْره قال: هل لكم أن أجعلَ لكم في منزلِ كلِّ رجل منكم تمثالاً مثله فيكون في بيته فيذكر به؟ فقالوا: نعم، ففعل فأقبلوا يذكرونه به، وأدرك أبناءهم فجعلوا يَرَون ما يصنعون به وتناسلوا، ودَرَسَ أَمْرُ ذِكْرهم إياه حتى اتَّخذوه إلهاً يعبدونه مِن دون الله تعالى، فكان أَوَّلُ مَن عبد غير الله تعالى في الأرض وَدّاً[١].

وأخرج ابن المنذر وغيره عن أبي عثمان النهدي أنه قال: رأيت يغوثَ وكان مِن رصاص يُحمَل على جمل أَجْرَد ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يَبْرُك، فإذ بَرَك نزلوا، وقالوا: قد رضي لكم المنزلَ. فينزلون حوله ويضربون عليه بناءً[٢].

وقيل: يبعد بقاءُ أعيان تلك الأصنام وانتقالها إلى العرب[٣]، فالظاهر أنَّه لم يَبْقَ إلا الأسماء، فاتَّخذت العربُ أصناماً وسمَّوها بها. وقالوا أيضاً: عبد وَدّ وعبد يَغوث، يعنون أصنامَهم، وما رآه أبو عثمان منها مسمًّى باسم ما سلف.

ويحكى أنَّ وَدّاً كان على صورة رجل، وسُواعاً كان على صورة امرأة، ويَغوث كان على صورة أسد، ويَعوق كان على صورة فرس، ونَسْراً كان على صورة نسر، وهو منافٍ لما تقدَّم أنَّهم كانوا على صور أناس صالحين، وهو الأصحُّ.

وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة بخلاف عنهم: «وُدّاً» بضمِّ الواو[٤]، وقرأ الأشهب العقيلي: «ولا يغوثاً ويعوقاً» بتنوينهما[٥]، قال صاحب اللوامح: جعلهما فعولاً؛

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩-٢٧٠.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩.
(٣) جاء في هامش الأصل و(م): قد أخرج الإفرنج في حدود الألف والمئتين والستين أصناماً وتماثيل من أرض الموصل كانت منذ نحو من ثلاثة آلاف سنة، فلا تغفل. انتهى منه.
(٤) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩١ عن نافع وأبي جعفر، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٢.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٤٢، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٢ عن الأعمش.

فلذلك صرفهما، وهما في قراءة الجمهور صفتان من الغَوْث والعَوْق يفعل منهما، وهما معرفتان، فلذلك منعا الصرفَ؛ لاجتماع الثَّقَلين اللَّذيْن هما التعريف ومشابهة الفعل المستقبل.

وتعقَّبه أبو حيان[1] فقال: هذا تخبيط؛ أمَّا أوَّلاً فلا يمكن أن يكونا فعولاً؛ لأنَّ مادة يغث مفقودةٌ، وكذلك يعق، وأمَّا ثانياً فليستا بصفتين؛ لأنَّ يفعلا لم يَجِئ اسماً ولا صفةً، وإنَّما امتنعا من الصرف؛ للعلميَّة ووزن[2] الفعل إن كانا عربيين، وللعلميَّة والعجمة إن كانا عجميين.

وقال ابنُ عطية[3]: قرأ الأعمش: «ولا يغوثاً ويعوقاً» بالصرف، وهو وهم؛ لأنَّ التعريف لازم، وكذا وزن الفعل. وأنت تعلم أنَّ الأعمش لم ينفرد بذلك، وليس بوهم، فقد خرَّجوه على أحد وجهين.

أحدهما: أنَّ الصَّرْفَ؛ للتناسب، كما قالوا في: ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا﴾[4] [الإنسان: ٤] وهو نوع من المشاكلة، ومعدود من المحسِّنات.

وثانيهما: أنَّه جاء على لغة مَن يصرف جميعَ ما لا ينصرف عند عامَّة العرب، وذلك لغة حكاها الكسائيُّ وغيره، لكن يَرِدُ على هذا أنَّها لغةٌ غيرُ فصيحة لا ينبغي التخريج عليها.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أي: الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ خَلْقاً كثيراً، أي: قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسَّكوا بعبادة الأصنام، فهم ليسوا بأوَّل مَن أضلُّوهم، ويشعر بذلك المُضِيُّ والاقتران بـ «قد» حيث أشعر ذلك بأنَّ الإضلال استمرَّ منهم إلى زمن الإخبار بإضلال الطائفة الأخيرة، وجوّز أن يراد بالكثير هؤلاء الموصين، وكان الظاهر: وقد أضلَّ الرؤساء إيَّاهم، أي: الموصين المخاطبين بقوله: «لا تذرنَّ آلهتكم» فوضع «كثيراً» موضعَ ذلك على سبيل التجريد.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤٢.
(٢) جاء في هامش الأصل: وهو المناسب لصرف سواع. انتهى منه.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦.
(٤) قرأ نافع والكسائي وأبو بكر وهشام بتنوين «سلاسلا». التيسير ص٢١٧، وستأتي.

وقال الحسن: «وقد أضلوا» أي: الأصنام. فهو كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وضمير العقلاء لتنزيلها منزلتهم عندهم وعلى زعمهم، ويحسِّنه على ما في «البحر»[١] عودُ الضمير على أقرب مذكور، ولا يخفى أنَّ عودَه على الرؤساء أظهرُ؛ إذ هم المحدَّث عنهم، والمعنى فيهم أمكن.

والجملة قيل: حاليَّة، أو معطوفة على ما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ قيل: عطف على: «ربِّ إنهم عصوني» على حكاية كلامِ نوح عليه السلام بَعْدَ «قال» والواوِ النائبةِ عنه، ومعناه: قال: ربِّ إنَّهم عصوني، وقال: لا تزد.. إلخ، أي: قال هذين القولين على أنَّ الواو مِن كلام الله تعالى؛ لأنَّها داخلة في الحكاية وما بعدها هو المحكيُّ، وإليه ذهب الزمخشريُّ[٢]، وإنَّما ارتكب ذلك؛ فراراً من عطف الإنشاء على الخبر. وقيل: عطف عليه، والواو من المحكي، والتناسب إنشائيَّةً وخبريَّةً غيرُ لازم في العطف، كما قاله أبو حيان[٣] وغيره، وفيه خلاف.

وفي «الكشف»: لك أن تجعله من باب: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي: فاخذلهم ولا تزدهم، وفي العدول إلى الظالمين إشعارٌ باستحقاقهم الدعاء عليهم، وإبداء لعذره عليه السلام، وتحذير ولطف لغيرهم، وفيه أنَّه بعضُ ما يتسبَّب من مساويهم، وهو معنًى حَسَنٌ، فعنده العطف على محذوف إنشائي، ولعلَّ الأَوْلى أن يقال: إنَّ العطف على «ربِّ إنَّهم عصوني»، والواو من المحكي، والتناسب حاصل.

وقال الخفاجيُّ[٤]: الظاهر أنَّ الغرضَ من قوله: «ربِّ إنَّهم» إلخ، الشكاية وإبداء العَجْز واليأس منهم، فهو طلب للنصرة عليهم، كقوله: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] ولو لم يقصد ذلك تكرَّر مع ما مرَّ منه عليه السلام،

---

(١) ٨/ ٣٤٢.
(٢) الكشاف ٤/ ١٦٤.
(٣) البحر ٨/ ٣٤٢.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٣.

فحينئذ يكون كنايةً عن قوله: اخذلهم، أو انصرني، أو أظهر دينك، أو نحوه، فهو من عطف الإنشاء على الإنشاء من غير تقدير، ويشهد له أنَّ الله تعالى سمَّى مِثْلَه دعاءً حيث قال سبحانه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢]، فتدبَّر.

وهو حسن خالٍ عن التكلُّف وارتكاب المختلف فيه إلا أنَّ في الشهادة دغدغةً.

والمراد بالضلال المدعوِّ بزيادته؛ إمَّا الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم، فيكون ذلك دعاءً عليهم بعدم تيسير أمورهم، وإمَّا الضلال بمعنى الهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ [القمر: ٤٧] وهو مأخوذ من الضلال في الطريق؛ لأنَّ مَن ضلَّ فيها هلك، فيكون المعنى: أهلكهم. وفسَّره ابنُ بحر بالعذاب، وهو قريب مما ذكر. وقيل: هو على ظاهره، أعني الضلال في الدين والدعاء بزيادته إنَّما كان بعد ما أوحي إليه عليه السلام أنَّه لن يُؤمنَ مِن قومك إلا من قد آمن، ومآله الدعاء عليهم بزيادة عذابهم. ويحتاج إلى دليل. وبما سمعتَ[1] ينحلُّ ما يُقال: إنَّ طلب الضلال ونحوه إمَّا غيرُ جائز مطلقاً، أو [غير جائز] إذا دُعيَ به على وجه الاستحسان، وبدونه وإن كان جائزاً لكنَّه غيرُ ممدوح ولا مرضي، فكيف دعا بذلك نوح عليه السلام عليهم؟

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾ أي: من أجل خطيئاتهم ﴿أُغۡرِقُواْ﴾ بالطوفان لا مِن أجل أمرٍ آخرَ، فـ «من» تعليليَّة، و«ما» زائدة بين الجارِّ والمجرور؛ لتعظيم الخطايا في كونها مِن كبائر ما يُنهى عنه، ومن لم يَرَ زيادتها جعلها نكرةً وجعل «خطيئاتهم» بدلاً منها، وزعم ابنُ عطيَّة[2] أنَّ «مِن» لابتداء الغاية، وهو كما ترى.

وقرأ أبو رجاء: «خِطيَّاتِهم» بإبدال الهمزة ياءً وإدغامها في الياء. وقرأ الجحدري وعبيد عن أبي عمرو: «خَطِيئَتِهم» على الإفراد مهموزاً[3].

---

(١) من كون الضلال المدعوِّ بزيادته إما الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم، وإما الضلال بمعنى الهلاك. حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٣، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦.

(٣) القراءتان في القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣.

وقرأ الحسن وعيسى والأعرج بخلاف عنهم وأبو عمرو: «خَطَايَاهُم» جمع تكسير[١].

وقرأ عبد الله: «من خطيئاتهم ما أغرقوا» بزيادة «ما» بين «خطيئاتهم» و«أغرقوا»[٢]، وخرّج على أنَّها مصدريَّة، أي: بسبب خطيئاتهم إغراقهم.

وقرأ زيد بن علي: «غُرِّقوا» بالتشديد بدل الهمزة[٣]، وكلاهما للنقل.

﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ هي نار البرزخ، والمراد عذاب القبر، ومَن مات في ماء أو نار أو أكلته السِّباعُ أو الطير مثلاً أصابه ما يصيب المقبورَ مِن العذاب. وقال الضَّحَّاك: كانوا يُغرَقون من جانب ويُحرَقون بالنار مِن جانب. وأنشد ابنُ الأنباري[٤]:

الخَلْق مجتمعٌ طَوراً ومفترِقٌ والحادثات فنونٌ ذاتُ أطوارِ
لا تَعجبنَّ لأضدادٍ إذا اجتمعت فاللهُ يجمع بين الماءِ والنارِ

ويجوز أن يراد بها نار الآخرة، والتعقيب على الأوَّل ظاهر، وهو على هذا لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال، فكأنَّه شبَّه تخلُّل ما لا يعتدُّ به بعدم تخلُّل شيء أصلاً، وجوِّز أن تكون فاءُ التعقيب مستعارةً للسببيَّة؛ لأنَّ المسبَّب كالمتعقِّب للسبب، وإن تراخى عنه لفَقْد شرط أو وجود مانع.

وتنكير النار؛ إما لتعظيمها وتهويلها، أو لأنَّه عزَّ وجلَّ أعدَّ لهم على حسب خطيآتهم نوعاً من النار. ولا يخفى ما في «أغرقوا فأدخلوا ناراً» من الحُسن الذي لا يجارى، ولله تعالى درُّ التنزيل.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: فلم يجد أحدهم واحداً من الأنصار، وفيه تعريضٌ لاتِّخاذهم آلهة مِن دونه سبحانه وتعالى وبأنَّها غيرُ قادرة على نصرهم، وتهكُّمٌ بهم.

---

(١) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩١ عن أبي عمرو، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣ والكلام منه.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٤٣، والقراءة ذكرها الفراء في معاني القرآن ٣/ ١٨٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٤٣، والدر المصون ١٠/ ٤٧٧.
(٤) هو أبو بكر ابن الأنباري كما في تفسير الثعلبي ١٠/ ٤٧، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٧.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ عطف على نظيره السابق، وقولهُ تعالى: «مما خطيآتهم» إلخ، اعتراضٌ وسط بين دعائه عليه السلام للإيذان مِن أوَّل الأمر بأنَّ ما أصابهم مِن الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيآتهم التي عدَّها نوح عليه السلام وأشار إلى استحقاقهم للهلاك لأجلها، لا أنَّه حكاية لنفس الإغراق والإحراق على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأحوال والأقوال، وإلَّا لأُخِّر عن حكاية دعائه هذا. قاله مفتي الديار الروميَّة عليه الرحمة(١).

وما قيل: إنَّه عطف على «لم يجدوا»، أو على جملة «مما خطيآتهم» إلخ، وليس المرادُ حقيقةَ الدعاء، بل التشفِّي وإظهار الرضا بما كان مِن هلاكهم = بعيدٌ غاية البُعْد، والمعروف أنَّ هذا الدعاء كان قبل هلاكهم.

والديَّار: مِن الأسماء التي لا تُستعمل إلا في النفي العامِّ، يقال: ما بالدارِ ديَّار، أو: ديُّور، كقَيَّام وقَيُّوم، أي: ما بها أحد، وهو فَيْعال مِن الدار، أو: من الدُّور، كأنَّه قيل: لا تذر على الأرض مِن الكافرين مَن يسكن داراً، أو: لا تَذَر عليها منهم مَن يدور ويتحرَّك، وأصله: دَيْوار، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، وليس بفعَّال، وإلا لكان دوَّاراً، إذ لا داعي للقلب حينئذٍ، و«من الكافرين» حال منه، ولو أُخِّر كان صفةً له.

والمراد بالكافرين قومُه الذين دعاهم إلى الإيمان والطاعة فلم يجيبوا، فإن كان الناسُ منتشرين في مشارق الأرض ومغاربها نحو انتشارهم اليوم وكانت بعثته لبعضٍ منهم كسكان جزيرة العرب ومَن يَقرُب منهم فذاك، وإن كانوا غيرَ منتشرين كذلك، بل كانوا في الجزيرة وقريباً منها، فإن كانت البعثة لبعضهم أيضاً فكذلك، وإن كانت لكلِّهم، فقد استشكل بأنَّه يلزم عموم البعثة، وقد قالوا بأنَّه مخصوصٌ بنبيِّنا ﷺ؟

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ٤١.

وأجيب: بأنَّ ذلك العموم ليس كعموم بعثتِه ﷺ، بل لانحصار أهل الأرض في قطعة منها، فهو انحصار ضروريٌّ وليس عموماً من كلِّ وجه، وهذا نحو ما يقال في بعثة آدمَ عليه السلام إلى زوجته وأولادِه، فإنَّهم حينئذٍ ليسوا إلا كأَهل بيت واحد.

على أنَّه قيل: لا إشكال، ولو قلنا بانتشار الناس إذ ذاك كانتشارِهم اليوم وإرسالهِ إليهم جميعاً؛ لأنَّ العموم المخصوص بنبيِّنا عليه الصلاة والسلام هو العموم المندرجُ فيه الإنس والجِنُّ إلى يوم القيامة، بل الملائكة عليهم السلام، بل وبل، والمشهور أنَّه عليه السلام كان مبعوثاً لجميع أهلِ الأرض وأنه ما آمن منهم إلا قليل، واستدلَّ عليه بهذا الدعاء وعموم الطوفان.

وتُعقِّب بأنَّ الأرض كثيراً ما تُطلَق على قطعة منها، فيحتمل أن تكون هنا كذلك، سلَّمنا إرادة الجميع لكن الدعاء على الكافرين وهم مَن بُعث إليهم فدعاهم ولم يجيبوه، وكونهم مَن عدا أهل السفينة أوَّل المسألة، والطوفان لا نسلِّم عمومه، وإن سلِّم لا يقتضي أن يكون كلُّ مَن غرق به مكلَّفاً بالإيمان به عليه السلام عاصياً بتركه، فالبلاء قد يعمُّ الصالحَ والطالحَ، لكن يَصدرون مصادرَ شتَّى كما ورد في حديث خسف البيداء، ويرشد إلى هذا أنَّ أولادَهم قد أُغرقوا ـ على ما قيل ـ معهم، وقد سُئلَ الحسن عن ذلك، فقال: عَلِمَ اللهُ تعالى براءَتهم فأهلكهم بغير عذاب، نعم الحكمة في إهلاك هؤلاء زيادة عذاب في آبائهم وأمهاتهم إذا أبصروا أطفالَهم يغرقون، وزعم بعضهم أنَّ الله تعالى أعقم أرحامَ نسائهم وأَيبسَ أصلاب رجالهم قبل الطوفان بأربعين ـ أو: سبعين ـ سنة، فلم يكن معهم صبيٌّ حين أُغرقوا، ويحتاج إلى نقل صحيح، وحِكَم الله عزَّ وجلَّ لا تُحصى، فافهم.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ أي: على الأرض، كلًّا أو بعضاً ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ عن طريق الحقِّ، ولعلَّ المراد بهم مَن آمن به عليه السلام، وبإضلالهم إيَّاهم ردُّهم إلى الكفر بنوع مِن المكر، أو المراد بهم مَن ولد منهم ولم يَبلغ زمن التكليف، أو مَن يولد مِن أولئك المؤمنين ويُدعَى إلى الإيمان، وبإضلالهم إيَّاهم صدُّهم عن الإيمان، وفي بعض الأخبار: أنَّ الرجل منهم كان يأتي بابنه إليه عليه السلام، ويقول: احذر هذا؛ فإنَّه كذَّاب، وإنَّ أبي أوصاني بمثل هذه الوصيَّة. فيموت الكبير

وينشأ الصغير على ذلك، قيل: ومِن هنا قال عليه السلام: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: مَن سيَفجُر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه لاستحكام عِلْمه بذلك بما حصل له من التجربة ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، ومثله قوله عليه السلام: «إن تذرهم يضلوا عبادك»، وقيل: أراد مَن جُبل على الفجور والكفر، وقد عَلمَ كلَّ ذلك بوحي، كقوله سبحانه: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وعن قتادة ومحمد بنِ كعب والربيع وابن زيد أنَّه عليه السلام ما دعا عليهم إلا بعد أن أَخرج اللهُ تعالى كلَّ مؤمن مِن الأصلاب وأعقم أرحامَ نسائهم، وأيّاً ما كان فقوله: «إنك» إلخ اعتذار ممَّا عسى أن يقال مِن أنَّ الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون مِن أخلافِهم مَن يؤمن، ممَّا لا يليق بشأنِ الأنبياء عليهم السلام.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ أراد أباه: لمك بن مَتُّوشَلَخ، وقد تقدَّم ضَبْطُ ذلك[1]، وأمه: شمخى ـ بالشين والخاء المعجمتين بوزن سَكْرى ـ بنت أُنُوش ـ بالإعجام بوزن أصول ـ وكانا مؤمنين، ولولا ذلك لم يجز الدعاء لهما بالمغفرة.

وقيل: أراد بهما آدم وحواء.

وقرأ ابن جبير والجحدري: «ولوالِدِيْ» بكسر الدال وإسكان الياء[2]، فإمَّا أن يكون قد خصَّ أباه الأقربَ، أو أراد جميع من وَلَدَوه إلى آدم عليه السلام، ولم يكفر ـ كما قال ابن عباس ـ لنوحٍ أبٌ ما بينه وبين آدمَ عليه السلام.

وقرأ الحسين بن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجههما ورضي عنهما وزيد بنُ عليِّ بنِ الحسين رضي الله عنهم ويحيى بن يعمر والنخعيُّ والزهريُّ: «وَلِوَلَدَيَّ»[3] تثنية: وَلَد، يعني ساماً وحاماً على ما قيل، وفي رواية: إنَّ ساماً كان نبيّاً.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): لكن قيل في لمك: إنه بفتحتين، ويقال فيه: لامك، كهاجر، ومتوشلخ على ما في جامع الأصول: بضم الميم وفتح الفوقية وفتح الواو وبسكون الشين المعجمة وكسر اللام وبالخاء المعجمة. انتهى منه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣، والكلام وما بعده منه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣.

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ﴾ قيل: أراد منزله، وقيل: سفينته. وقال الجمهور وابنُ عباس: أراد مسجدَه. وفي رواية عن الحبر: أنَّه أراد شريعته، استعار لها اسم البيت، كما قالوا: قبَّة الإسلام، وفسطاط الدين.

والمتبادر المنزل، وتخرج امرأته وابنه كنعان بقوله: ﴿مُؤۡمِنٗا﴾ وقيل: يمكن أنَّه لم يجزم بخروج كنعان إلا بعد ما قيل له: إنَّه ليس من أهلك.

﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: من كلِّ أمة إلى يوم القيامة، وهو تعميم بعد التخصيص، واستغفر ربَّه عزَّ وجلَّ إظهاراً لمزيد الافتقار إليه سبحانه وحبًّا للمستغفر لهم مِن والديه والمؤمنين.

وقيل: إنَّه استغفر لمَّا دعا على الكافرين؛ لأنَّه انتقام منهم. ولا يخفى أنَّ السياق يأباه، وكذا قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾ أي: هلاكاً، وقال مجاهد: خساراً. والأوَّل أظهر.

وقد دعا عليه السلام دعوتين؛ دعوة على الكافرين ودعوة للمؤمنين، وحيث استُجيبت له الأولى، فلا يبعد أن تُستجاب له الثانية، والله تعالى أكرم الأكرمين.

ومعظم آيات هذه السورة الكريمة وغيرها نصٌّ في أنَّ القوم كفرةٌ هالكون يوم القيامة، فالحكم بنجاتهم كما يقتضيه كلام الشيخ الأكبر ـ قدِّس سرُّه ـ في فصوصه مما يُبرأ إلى الله تعالى منه، كزعم أنَّ نوحاً عليه السلام لم يَدعهم على وجه يقتضي إيمانهم مع قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقصارى ما أقولُ: ربِّ اغفر لي ولوالديَّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات.